دروب الترقي

تأليف الدكتور
يحيى أحمد المرهبي

دروب الترقي

تأليف

الدكتور: يحيى أحمد المرهبي

تقديم ومراجعة وتنسيق

الدكتور: بكيل علي المراني

١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

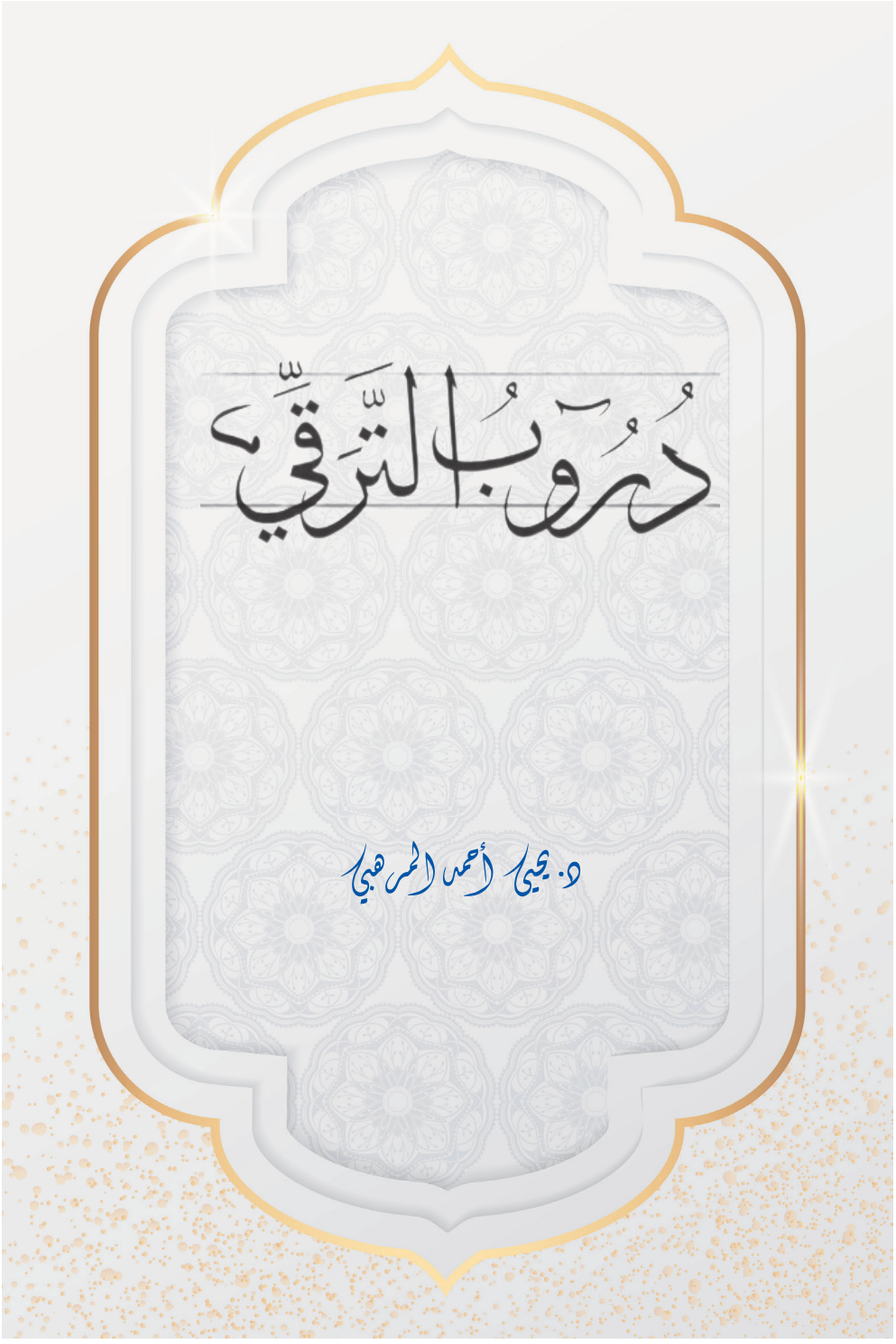
دُرُوبُ التَّرَقِّي
د. يحيى أحمد المرهبي

المُحتَويات

تقــــديم 6

المقــدمـــــة... 9

درب التبانة .. علوٌّ في الحياة وفي المات 12

سلامةُ الدرب .. قرارٌ راشدٌ وهدفٌ قاصدٌ............................ 16

غايةٌ واضحةٌ .. سيرٌ متواصلٌ على الدرب.............................. 19

درب التوحيد..جوهر الإسلام ومنطلق النهوض 23

درب الجهاد والاجتهاد.. بناء الداخل وردع الخارج 58

دربُ الأمل.. لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا 86

درب العلم والعمل.. وجهان لعملة واحدة هي العبادة................. 102

دربُ التوكل... بذلٌ للأسباب وثقةٌ تامةٌ بالمسبِّب 116

درب الكرامة .. ثقةٌ وعزة نفس 131

درب التحرر... استردادٌ لإنسانية الإنسان 146

درب الثبات... أنبته ثباته 166

عُـني الإسـلام بهـذا الإنسـان أيـما عنايـة، الـذي هـو محـور الكـون، ومقصـد الرسـالات، خلقـه بيديـه، ونفـخ فيـه مـن روحـه، وأسـجد لـه ملائكتـه، علّمـه الأسـماء التـي هـي مفاتيـح العلـوم واللغـات، وسـخر لـه مـافي السـماوات والأرض، ليرتقـي بهـذا الإنسـان، في تحقيـق مهمـة عبـادة الله وعـمارة الكـون والاسـتخلاف في الحيـاة، وجعـل رقـي الإنسـان ليـس في عـالم الماديـات فحسـب، ومـن هنـا نفهـم قـول عيسـى - عليـه السـلام - : « ليـس بالخبـز وحـده يحيـا الإنسـان»، فقـد ارتقـى بـه في عـالم الماديـات وعـالم القيـم والمعـارف والأخـلاق، بـل جعـل الإسـلام المعـاني قبـل المبـاني، والمخـبر قبـل المظهـر، والمضمـون قبـل الشـكل، وهكـذا: يـا خـادم الجسـم كـم تسـعى لخدمتـه ... أتطلـب الربـح فيـما فيـه خسـرانُ أقبـل عـلى الـروح واسـتكمل فضائلهـا... فأنـت بالـروح لا بالجسـم إنسـانُ

جعـل الله تعـالى الارتقـاء بالإنسـان في عـالم المعـاني والمبـاني مسـتندا إلى دعامتـين أساسـيتين همـا : التربيـة والتعليـم، فقـال تعـالى عـلى لسـان نبيـه إبراهيـم عليه السـلام بعـد أن دعـا ربـه : ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة:128-129) ، فاسـتجاب الله تعـالى لدعـوة

نبيه إبراهيم، (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون) ، فذكر الله تعالى العلم و أدوات العلم وثمرة العلم وهي التربية والتزكية، فلا رقي للإنسان إلا بالعلم والتربية، وهما أمران يقتضيان معلما ومتعلما ومنهجا وأدوات ووسائل وطرائق وبيئة للتعليم والتربية، وليست العبرة في الترقي بالشهادات والأوسمة، بل العبرة بالعلم النافع الذي يغذي العقل، والروح الخلاقة التي تزكي النفس، وتهذب الخلق، ويؤدي ذلك إلى اقتران العلم بالعمل، لأن العلم لا يراد لذاته، وإنما لثمرته التي هي العمل، وكم من آية في القرآن الكريم اقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح، ولا يمكن أن تكون حركة العلم وافية بتحقيق هذه المقاصد إلا إذا أدركنا أن العملية التعليمية لاتنفصل عن التربوية، وهي صناعة المستقبل وبناء الإنسان، والإنسان لا بد أن يصح عقلا وجسدا وروحا، عقلا بالعلم النافع، جسدا بالعافية والنشاط، روحا بالتزكية الخلاقة، ليكون الإنسان أساسا لأداة التغيير والنهضة المنشودة في المجتمع، وليسير المسلم في دروب الترقي على هدى وبصيرة، ليصل إلى أقصى مراتب التكريم التي أرادها الله له في الدنيا، وإلى السعادة والفلاح والفوز في الآخرة.

إن السير في دروب الترقي تقتضي من السائر بصيرة نافذة، وعقلا راجحا، وجسما صحيحا، وخلقا رشيدا، ونفسا كريمة، وهمة عالية، وذهنا متقدا، وعملا دؤوبا، ومغالبة للهوى وحظوظ النفس، فليس كل

السائرين يصلون، وليس كل الطامحين ينجحون، والتحدي الصعب أن تمشي في دروب الترقي طواعية، ولكن التحدي الأصعب أن تواصل السير للنهاية، فالطريق ليس مفروشا بالورود، ولا مزينا بالألوان، فقد (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)، والنفس تحتاج إلى الترويض والتطويع والتزكية، (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)، لتصير منقادة للخير والفضائل، بعيدة عن الشرور والرذائل، نفسا زكية يرتقي بها صاحبها في مدارج السالكين، ويصل بها إلى رضوان رب العالمين.

من خلال قراءتي كتاب (دروب الترقي) للدكتور العزيز/ يحيى أحمد المرهبي وجدت فيه إضاءات بهية، ورشفات ندية، وقبسات سنيّة، لكل من يرغب في السير في تلك الدروب، ليرتقي بروحه إلى الله، ويتسامى بإحساسه وضميره، ويعيش بنفس كبيرة صافية نقية، تتعالى على الصغائر، وترتفع عن السفاسف، وتأنف من الدنايا، وتستصغر العوائق، وتستعذب المكاره، وتحطم الحواجز، سعيا نحو الخير، وطلبا للحق، وإقامة للعدل، ونشرا للفضيلة، وتحقيقا لمراد الله عز وجل.

أسأل الله تعالى أن يكون فيه النفع والفائدة، وأن يجعله في ميزان حسناته، وأن يكون هذا الكتاب نبراسا يضيء للسائرين السير في دروب الترقي، والحمد لله رب العالمين.

د. بكيل المراني

26 جمادى الأخرى 1445هـ - 8/ 1/ 2024م

يخبرونك أنه (من سار على الدرب وصل)، لكن لا أحد يخبرك القصة كاملةً، وهي أنه: من سار على الدرب تعثَّر وسقط وقام ... تألّم ونهض ... خُذِل ووقف ... كابد اليأس وحارب وانتصر ... ثم مشى بالعزيمة، وظن بالله خيرًا، حتى وصل...! كل هذا يوجب علينا أن نجعل من شطر هذا البيت الشعري شعارًا، وأن نكون على قدر المسؤولية في تحمل تبعات هذا السير في هذه الدروب، والبيت الشعري جزءٌ من قصيدةٍ رائعةٍ لعمر بن مظفر المعري الوردي ينصح بها ولده ويوصيه:

لا تقل قد ذهبت أيامه كل من سار على الدرب وصل

سنشارككم - بمشيئة الله وعونه – وقفاتٍ تأمّليةً فكريةً تربويةً، تندرج تحت عنوانٍ كبيرٍ، اجتهدنا أن نسميه (دُرُوب التَرقِّي)، نهدف من خلال هذه المقالات إلى إبراز جوانب مضيئةٍ في دروب الترقي، لمن يواصل السير في هذه الدروب، ويمكنني أن أضع بين أيديكم هذه الأفكار التي تعطي صورةً أوليةً عن طبيعة هذه الكتاب.

وأولى الأفكار التي يمكن أن تكون لها الصدارة في هذا المقام، هي أن نكون على يقينٍ بأن الجهالة قرينة التخلف، فكلما كان المجتمع متخلفًا كانت الجهالة إحدى تعبيراته الاجتماعية، فالمجتمع المتخلف لا يستشعر

الحاجة إلى ترقية نمط حياته، بل إنه في كثير من الأحيان يقاوم عمليات الترقي، وهذا يؤكد محورية درب العلم وأهميته وضرورته في مقاومة الجهل والتخلف.

وثانية هذه الأفكار التي أسوقها لك -يا صاحبي- هي أن الثبات لا يعني الجمود، ثم أنت لا تتبع قيمك لأنك تقدسها في حد ذاتها، ولكن لأنك تعتقد أنها (دربك) إلى الحقيقة، فإذا اكتشفت أنك في حاجة إلى تصحيح دربك أو تغييره كليا حتى تصل إلى ما تبغي أن تصل إليه - إذا اكتشفت هذا الأمر ولم تفعل- فإن ذلك هو الخيانة الواضحة والصريحة، وهنا تكون الفتنة قد نالت منك بحق.

وثالثة هذه الأفكار التي أضعها بين يديك، ويمكنك أن تستخلصها أنت من خلال بعض أبيات قالها أديب أنيق وشاعر مبدع، يتلمّس من خلالها بعض دروب حياته:

وما زالت إليك الروح تهفو ... وتبحث فيك عن مكنون ذاتي
وعن وجه الطفولة في حياتي ... وعن لون البنفسج في دواتي
وعن عطر يذكرني بذاتي ... وأسراب الحمام الزائراتِ
وتبحث عن دروبك في القوافي ... فتعثر في البيوت الدارساتِ
هنا بدأت حدود الياسمين ... وشق الورد أطراف القناةِ

ودعوني أصدقائي الأعزاء أختم لكم هذا المدخل ببعض عبارات تنير لكم طريق دروبكم الطويل، فخذوها بقوة، وعضوا عليها بالنواجذ،

فالسـفر طويـل، والعقبـة كـؤود، والناقـد بصـير:

سر لا تقف! فالدرب لا يأتي إليك...

والحلم لا يجري ليسقط في يديك...

هي هكذا الأيام سير دائم ...

إن تلتفت للخلف... تخسر ما لديك...

درب التبانة .. علوٌّ في الحياة وفي الممات

درب التبانة (أو «الطريق اللبني») هي مجرّة حلزونية الشكل، وهي اسم المجرة التي تنتمي إليها الشمس والأرض، وبقية المجموعة الشمسية، وتشتمل مجرة درب التبانة على (مئات البلايين) من النجوم، وتنتشر سحابات هائلة من ذرات التراب والغازات في شتى أطراف المجرة، تحوي ما بين 200 إلى 400 مليار نجم؛ ويبلغ قطرها حوالي 100.000 – 180.000 سنة ضوئية وسمكها حوالي 1000 سنة ضوئية، فهي قرص رقيق جدا مقارنة بغيرها من المجرات، ونحن نعيش قريبا من حافة تلك المجرة حيث تدور مجموعتنا الشمسية حول مركز المجرة، وتبعد المجموعة الشمسية عن مركز المجرة نحو 27 ألف سنة ضوئية، (مأخوذ عن موسوعة ويكيبيديا باختصار).

أحببت من خلال هذه المعلومات المختصرة عن درب التبانة أن أضعكم في صورة هذه العظمة الإلهية التي خلقت هذا الدرب (درب التبانة)، بهذه الضخامة والاتساع والسمو، وهناك دروب أخرى أكبر وأضخم وأوسع، وهدفي من ذلك لفت انتباه من يبحثون عن دروب الترقي إلى اختيار دروب السمو والرفعة والعلو، كما أن عليهم البحث عن الدروب الأكثر سعة وامتدادا وتساميا، وأن يبتعدوا عن الدروب الضيقة،

التي قد تفضي إلى طرق مسدودة، بل قد تكون أبوابًا موصدة بين الإنسان وبين الترقي إلى ملكوت الله.

حديث الروح للأروح يسري فتدركه القلوب بلا عناء

لقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقلِّب وجهه في السماء باحثًا عن درب بعينه، والباحث عن دروب الترقي يجد استجابة من العليم الخبير، وهذا ما تم مع الحبيب، فقد استجاب الله لتطلعات روحه ومعراجها، فولَّاه قبلة يرضاها، فاطمأن قلب الحبيب وهدأت نفسه، وصارت الكعبة منذ تلك اللحظة معراجًا يصل الأرض بالسماء، ودربًا (لمن يمرون إلى السماء).

والأمر الجدير بالذكر هنا، هو أن الإنسان الذي لا ينظر إلى السماء يفقد طريقه، كما يقول المفكر المسلم (علي عزت بيجوفيتش)، ولهذا لا يمكن أن يصبح الإنسان معلما للوجوه الأخرى (قدوة)، ما لم يصبح هو تلميذًا عند وجه السماء، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: 21)، وقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4).

ولعلكم طالعتم في كتب الأخبار والآداب قصة الشاعر الجاهلي امرئ القيس بن حجر الكندي (اليمني)، الذي قتَلت قبيلة بني أسد أباه الحارث، آخر ملوك كِنده، فسار امرؤ القيس في القبائل يبحث عن نصير يعينه على الأخذ بثأر أبيه، واستعادة ملك آبائه، ولكنه لم يجد من

ينصره، فاتجه إلى قيصر الروم في القسطنطينية مستغيثا، لكنه لم يظفر بما أراد، ومات في (أنقرة) وهو عائد من القسطنطينية، وكان مما قرضه امرؤ القيس من شعر ـ وهو متوجه إلى بلاد قيصر ـ بيتاه الشهيران اللذان يخاطب فيهما رفيق دربه قائلا:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له: لا تبك عيناك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس وعُذِر هو ورفيق دربه، على الرغم من أنهما لم يحققا ما طمحا إليه من إحياء مملكة كِندة.

هناك دائما مخاطرة في الخروج عن الدروب المطروحة والمطروقة، واستيطان الأماكن المتطرفة، والعيش قرب الحدود غير الآمنة، نعم (نحاول ملكا أو نموت فنعذرا)، هكذا فلسف امرؤ القيس رحلته مع رفيق دربه، وهذا هو حال الدروب السامية، تتطلب ثمنا باهضا، قد يعجز عن دفع هذا الثمن من يسيرون في الدروب المطروقة سلفا، ويستوطنون الأماكن المأهولة بأمثالهم، ويعيشون في الحدود الآمنة، المساعدة على البقاء في منطقة الراحة والاسترخاء، ولكل مجتهد نصيب، ومن طلب أمرا عظيما خاطر (بعظمَته)، {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} (المزمل: 5 ـ 6).

وقد تجد -وأنت سائر في طريق الترقي- من يحاول تثبيطك وإعاقتك، أو يحاول أن يتطفّل عليك، كي تتولى حمله معك، دون بذل

أي جهد يذكر من قِبَله، بل أحيانا قد يجنح إلى أذيتك، ويشغلك عن مواصلة ترقيك في دربك، ومثل هذا الإنسان عليك ألا تلقي له بالا، وأن تعزم على مواصلة ترقيك، وتصابر على سيرك في درب السمو، وليكن حالك شبيها بحال النسر مع الغراب، فالطائر الوحيد الذي يستطيع أن يعلو فوق النسر هو الغراب، يعلو فوق ظهره وينقر رقبته لإزعاجه، لكن النسر لا يرد عليه ولا يهاجمه، يقوم فقط بالتحليق عاليا في السماء، فيصعب على الغراب التنفس لنقص الأكسجين فيسقط، لذلك لا تضيع وقتك في الصراع مع الغربان، فقط حلق عاليا وهم سيسقطون.

في زمن الشدائد والفتن يميل كثير من الناس إلى (منهج السلامة)، وتميل الصفوة إلى (سلامة المنهج)، وسلامة الفكرة العقائدية لا تغني شيئا إذا غاب عمق الإحساس بمعاني العقيدة واستشعار حلاوتها، وهو أمر يفتقده قساة القلوب، سواء فهموا المعنى النظري للعقيدة أم لم يفهموه، وما زلت أقول وأردد أنه عندما يسقط المعنى، تسقط المعنويات، ويعلو صوت المعاناة، ويبدو الدرب محض إرهاق.

وإذا أراد العقل السلامة من عواقب الندامة، كما يؤكد على ذلك الأستاذ (عبد العزيز الطريفي)، فعليه أن يقدِّر لكل أمر قدره من التأمل والتفكر، فليست كل الأمور تستوي في مقدار التفكير، فمنها ما يحتاج إلى تأمل طويل بعقل واحد، ومنها ما لا يُكتفى فيها بعقل واحد، وإنما يحتاج إلى تشاور مع عقول راجحة أخرى.

والعلم بالمفاسد فقه عظيم، وهو دقيق لا يدركه كل أحد، وهو خلاف العلم بالمصالح، فالنفوس تتشوف إليه وتقبل عليه، وإنما تؤتى الأمم وتسقط الدول، لأنها عرفت جهة من المفاسد ولم تعرف جهات أخرى منها، وضررها فيما تجهل أشد مما تعلم، فتتجنب ما تعلم، وتقع فيما تجهل، تظنها السلامة، وهو الهلاك؛ ولذا عليك أيها الإنسان

ألا تلتفت خلفك لترى كثرة الأتباع، وإنما عليك أن تنظر أمامك لترى (سلامة الدرب) الذي تسير فيه، وكلما كان الإنسان بالمفاسد أبصر، كان في باب السلامة أدق نظرا وأكثر توفيقا.

وكم يحزّ في النفس أن نرى أناسا يعدون عدم وجود معارضة لأي شيء دليل صحة وعافية لهذا الشيء، مع أن تلك الحالة تشبه حالة جسم تفتك به العلل والأمراض دون أن يصدر عنه أي إنذار من ألم أو ارتفاع حرارة! وتلك العقلية، جعلت منا أمة نموذجية في الهروب من مواجهة المشكلات، و(إيثار السلامة) على الحق والمصير المشترك!

والفرق جليٌّ بين: جهاد الإنسان (في سبيل الله)، وبين جهاد الإنسان (في الله)، فالأول مفهوم قرآني يتمحور حول (سلامة الدرب)، والسعي إلى إزاحة العوائق عنه، أما الثاني فهو أيضا مفهوم قرآني، نواته هي: (إرادة وجه الله تعالى)، ولن يستطيع أحد أن يحافظ على (سلامة قلبه وصحته) وهو مقصِّر في فريضة من الفرائض أو وهو مستمر على منكر من المنكرات، (إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة). رواه مسلم.

وحينما يقوم الإنسان بفعل محدد، فإنَّه - حين يبدأ الفعل- لا بد أن يستحضر المعايير والضوابط الحاكمة (لسلامة البدء)، و(سلامة السير) في الاتجاه، و(سلامة المقصد) من الفعل، وفق تعبير الدكتور (فتحي ملكاوي).

والمطلوب في علاقة المسلمين ببعضهم وحدة القلوب، لا وحدة العقول، لأن وحدة القلوب تعني (سلامة الصدور)، وعمق الإخاء، مهما يكن من التفاوت في الرأي، فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، كما يقال، أما اختلاف العقول، فلا بد منه، لأنها لو اتفقت لكفانا منها عقل واحد، فالاختلاف تلاقح وإبداع، وتنوع واجتهاد.

يقول (سعد مصلوح)، وفق ما نقله عنه الأستاذ (محمد متولي): محبة الرجال للرجال (فتنة موجبة) لتكلف الحَسن فيما ليس بالحَسن، وبغض الرجال للرجال (فتنة صارفة) عن التماس العذر وإقالة العثرة فيما هو معيب، و(إيثار السلامة فتنة) تغري بزخرف القول، وبما هو حمَّال أوجه من الكلام، ذلك كله حق لا مرية فيه، لكن ذلك لا ينبغي أن يفسد شهادة لا يكتمها إلا من هو آثم قلبه.

وقاعدة السلامة تعني: ضمير مستجيب إلى الحق ومنهج قويم للوصول إليه، وعلى الإنسان عندما يركب القطار الخطأ، أن يحاول النزول منه في أول محطة، لأنه كلما زادت المسافة، زادت تكلفة العودة!

يقول الشيخ (محمد الغزالي) في كتابه جدد حياتك: « أعرفُ رجلًا قُطِعت قدمه في جراحةٍ أجريت له، فذهبتُ لأواسيه، وعزمت أن أقول له: إن الأمةَ لا تنتظر منك أن تكون عدَّاءً ماهرًا، ولا مصارعًا غالبًا؛ إنما تنتظر منك الرأي السديد، والفكر النيِّر، وقد بقي هذا عندك ولله الحمد! لكني عندما عدته وجدته يقول لي: الحمد لله! لقد صحبتني رجلي هذه عشرات السنين صحبةً حسنة، وفي سلامة الدِّين ما يُرضي الفؤاد». والمتمعن في كلام هذا الرجل يجد إشارة ذكية إلى أن الغاية لديه واضحة ولا تحتاج في توضيحها إلى مواساة من أحد، وهذا هو ما جعل الشيخ (محمد الغزالي) يورد هذه الحادثة في معرض الحديث عن ثبات النفس وقوة البصيرة ووضوح الغاية.

وبالمقابل، نجد من كان له هدف واضح يسعى للوصول إليه، وهو ما هوّن عليه مواصلة السير في هذا الدرب (وإن كانت الغاية فاسدة والدرب موحش)، فقد ذكر الجاسوس البريطاني (لورانس) في مذكراته (أعمدة الحكمة السبعة) قال: «كنت أقطع هذه المسافات (يقصد بين القبائل البدوية بغرض تأليبها على محاربة الدولة العثمانية والاشتراك معه في قتالها) على قدميَّ: أحيانا أنتقل منتعلا، وحينا أمشي (حافي

القدمين) على دروب فرشت بالرمال المحرقة والحصباء الحادة، وذلك كي أعوِّد نفسي على المشاق، وكنت عقب كل جولة أشعر بتقدم ضئيل في هذا المضمار». أرأيتم كيف حوّلت عزيمة هذا الرجل رمال الصحراء وحصباءها المحرقة إلى أمر يمكن التغلب عليه، ما دام هناك هدف وغاية يمكن تحقيقهما؟ إنها حرارة الإرادة والعزيمة التي تجعل كل عوائق المقاومة تلين في طريقها.

والقرآن قبل هذا وبعده، يحدثنا عن إصرار عجيب، وعزيمة لا تلين، من قبل عدو ابن آدم الأول (إبليس)، قال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}(الأعراف: 16)، عندما طلب من الله أن ينظره إلى يوم البعث، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (الحجر: 36)، فاستجاب الله لطلبه، فأقسم بين يدي رب العزة أن يكون له هدف وغاية، قال تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (ص: 82 ـ 83)، وأظهر أنه سيسلك للوصول إلى هذه الغاية دروبا متعددة، قال تعالى: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} (الأعراف: 17). وهذا المشهد القرآني يعطينا صورة واضحة عن طبيعة الجرأة والوقاحة التي اتصف بها إبليس بين يدي رب العزة، ولكن هذا المشهد يشير أيضا إلى نوع من الإصرار والعزيمة العجيبة، لمواصلة السير في درب الضلال والإغواء، وهو درس لكل مؤمن، والأصل في هذا الدرس أن يشدَّ من

عزيمة المؤمن، ويجعل إصراره صلبا لمواصلة السير في درب الهداية والفلاح.

وما نحتاجه اليوم ليس من ينير لنا الطريق (لأننا بالفعل على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)، ولأن مزيدا من الإنارة والإضاءة (التي بهرتنا بها الحضارة الغربية وأجهرت بها أعيننا) هي مزيد من إعماء عيوننا، إنما نحتاج اليوم إلى من يمدنا بنظارات (ربانية) تمنع عنا آفات الضوء الآتي من وراء البحار، الذي أُطلق لا لينير لنا الطريق، ولكن ليبهرنا بأضواء ينطبق عليها قول الله: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} (يس: 9).

وهنا يمكننا أن نشير إلى ثلاث خطوات للتعامل مع الحقيقة أثناء سيرنا في دروب الحياة، حسب وصف أحدهم: الأولى اكتشافها، والثانية الإعلان عنها، والثالثة اختيار الطريقة المناسبة للإعلان عنها، الخطوة الأولى تحتاج إلى بصيرة، والثانية تحتاج إلى شجاعة، والثالثة تحتاج إلى فقه.

إذا اختلفنا في الخطوة الأولى فنحن مختلفون في الحقيقة، وإذا اختلفنا في الثانية فنحن مختلفون في الشجاعة، أما إذا اختلفنا في الثالثة فنحن مختلفون في الفهم، وهنا ينبغي أن يعذر بعضنا دون لوم، فالطرق إلى الله بعدد الأنفس التي خلقها الله.

قال العارفون بالله: لم يكن أبدًا من شروط السير إلى الله أن تكون بِطُهْرِ الملائكة، سِرْ إليه بأثقال طِينتك، فهو يحب قدومك عليه على أيِّ حال كنت! وهذا الطريق (الدرب) الذي تسير فيه متوجها إلى غايتك،

لا يكـون بـلا معانـاة، فـلا تسـتكن، وهـذا الطريـق أيضـا لا يكـون بـلا عـدو فـلا تتراجـع، مـا ينـير الطريـق هـو نيـة المسـافر، فـلا تنطفـئ، ومعرفـة الغايـة لا تفيـد شـيئا إذا جُهـل الطريـق الموصـل إليهـا، ومـا رجـع مـن رجـع إلا مـن الطريق، ولـو وصلـوا مـا رجعـوا، والسـعيد الموفـق هـو مـن يضحـي ببعـض مصالحـه في سـبيل البقـاء عـلى الطريـق القويـم.

ودعـوني أختـم هـذا المقـال بدعوتكـم بـكل صـدق وإخـلاص، أن دعوا خيريتكـم تتحـدث عـن نفسـها، دعـوا صدقكـم يفصـح عـن نفسـه، تواضعـوا يرفـع الله قدركـم أكثـر، لا تقطعـوا الطريـق عـلى أنفسـكم لتحقيـق الكـمالات بادّعـاء الكـمال المطلـق، لأن نقصكـم الدائـم هـو آيتكـم في طلـب الازديـاد، هـو شرط وجودكـم الحـي المـوّار، يبقيكـم في حالـة توتـر وقلـق، تدفعكـم للبحـث عـن الامتـلاء، إنّ الشـعور بالكـمال المطلـق لـدى الإنسـان يعنـي موتـه التـام، لا تذهبـوا إلى حيـث يأخذكـم الطريـق، بـل اذهبـوا إلى حيـث لا يوجـد طريـق واتركـوا أثـرا، يتذكركـم النـاس مـن خـلال هـذا الأثـر بـكل إجـلال وإكبـار، مرددين قـول الشـاعر:

وكن رجلا إن أتوا بعده يقولون مر وهـذا الأثر

درب التوحيد.. جوهر الإسلام ومنطلق النهوض

الإسلام هو جوهر الحضارة، والتوحيد هو جوهر الإسلام ونواته، ولا نجاح يُرتجى لأي حركة تجديد حضارية لا تنطلق منه، فلا إسلام إلا بالتوحيد، وإذا كان التوحيد هو جوهر الإسلام وكنهه، فإنه أيضا منطلق النهوض ومضمونه.

والإنسان مفطور على التوحيد، والشرك بكل صوره وتجلياته ومظاهره نتاج نظم فاسدة في التربية، وفعل التأويل والتاريخ، والتوحيدَ قيمةٌ معيارية عليا تختصّ أساسًا بالرؤية الإسلامية للإله الخالق المدبِّر، وتُقوَّم بها معتقدات الإنسان، ونتائج هذه المعتقدات وآثارها في فكر الإنسان وحياته.

ورسالة الإسلام هي (التوحيد الخالص)، وهو (أي التوحيد) أشبه ما يكون بالذهب في أقصى درجات نقائه وخلوه من المعادن الأخرى، كما وصفه الدكتور (مراد هوفمان)، أي أنه ذهب عيار 24 (إن جاز التشبيه)، وليست هناك درجة أعلى من هذا التوحيد يمكن للمرء أن يتخيَّلها.

ويعترف كثير من العلماء غير المسلمين كذلك بأن مفهوم التوحيد في الإسلام متميز تماما عن مفهومه فيما يسمى (بالديانات التوحيدية الأخرى، سواء في تصورها للإله الواحد، أو بانعكاسات هذا التصور على

علاقة الخالق بالمخلوقات، أو بعلاقة الناس مع بعضهم بعضا.

ولا يختلف علماء المسلمين في أنَّ التوحيد هو أساس الإسلام، وهو الذي يعطي للحضارة الإسلامية هُوَّيتَها، وأنَّ التوحيد في الرؤية الإسلامية هو قيمة مركزية، ومصدر للقيم الأخرى، وقاعدة لمضامين هذه القيم في أنظمة الفكر والحياة جميعها، من التفكير والنظر العقلي، إلى النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إلى النسق الجمالي، والتفكير العقلي... إلخ. وفق تعبير الدكتور (فتحي ملكاوي).

وقد عرض القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع التوحيد بصورة بسيطة، قريبة إلى العقل والوجدان، ثم أصبح التوحيد، فيما بعد، موضوعًا لعلم أخذ عناوين متعددة، واختلطت فيه مقولات كلامية وفلسفية وصوفية، واختلفت طرق عرضه وتعلّمه وتعليمه، وظهرت حوله فرق ومذاهب، كان لها أثر في الفتن والمحن التي لحقت بالأمة الإسلامية الواحدة، ومع أنّ بعض الجهود المعاصرة تحاول إعادة صياغة علم التوحيد، لكنها لا تخرج كثيرًا عن مقولات علم الكلام التراثية.

كما إن من أخص خصائص عقيدة التوحيد، كما يعرضها القرآن الكريم والسنة النبوية: البساطة والوضوح، وقرب هذه العقيدة من قلب الإنسان وعقله، وهي خاصية لمسها العربي في صدر الإسلام بفطرته وبساطته فأسلم، ولمستها الشعوب التي عرفت الإسلام على أيدي الفاتحين من الصحابة، ثم على أيدي التجار بعد ذلك، مقارنة بالغموض

والتعقيد في العقائد الأخرى فأسلمت، ويلمسها اليوم في أنحاء الأرض من هم في قمة المدنية في أوروبا وأمريكا واليابان، والبدائيون في أدغال أفريقيا ومجاهلها فيسلمون، المهم في ذلك كله هو أن تُعرض عقيدة التوحيد على الناس على حقيقتها الواضحة البسيطة، وأن يعرضها دعاة يتصفون بها، ويخلصون لها، كما يؤكد على ذلك الدكتور (فتحي ملكاوي).

ودعوني ألخِّص ما سبق بهذه الأبيات التي تسيل عذوبة، وتنطق بلسان كل قلب موحِّد، يسير في دروب الترقي ووجهته الواحد الأحد جل في علاه:

قم جرِّد قلبك تجريدا ... واجعل ذراتك توحيدا
واخلع نعليك بوادينا ... واترك ما تهواه بعيدا
صِفرا قد كنت بلا معنى ... والواحد أعطاك وجودا
والدنيا مثلك أصفارٌ ... لا شيء قديما وجديدا
لا تنظر شمسا أو قمرا ... أو مجدا في الأرض تليدا
لا تنظر أشكالا صنعت ... ذهبا وحريرا وحديدا
فتراب هذا أجمعه ... بل كان سرابا محدودا
لا تطرق أبوابا أخرى ... لا تخش ملوكا وعبيدا
حطِّم أوهامك واذكرني ... وبذكرك لي كن مفقودا

والتوحيد الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ طرازٌ نقيٌّ فريدٌ، لا تناقض فيه ولا وهم ولا تجسيد ولا تعديد! وقد تسأل: لماذا

انضمت الشهادة لمحمد بالرسالة إلى الشهادة لله بالوحدانية؟ والجواب على ذلك هو أن التوحيد الذي يعلمه محمد بن عبد الله، هو الذي يعرفه النبيون كلهم أزلا وأبدا، ولم يبلِّغوا غيره، فمجيئه عن طريق محمد إشارة إلى أنه من مصدر مصون منزه حسب تعبير الشيخ (محمد الغزالي)، وعقيدة التوحيد وليدة فكر ثاقب، وبرهان دامغ، وما الشرك أو أبوَّة الله وبنوته، إلا ظنون خامرت العقل وهو غافل، وسكنت فيه وهو مخدَّر.

والتوحيد في الإسلام هو كلُّ الإسلام، والقرآن كله يدور حول التوحيد، فآيات القرآن إما إخبار عن الله وصفاته وخلقه وأفعاله وتدبيره، وإما بيان للثواب بأنواعه، وهو جزاء من أطاعه واتبع رسله، الذين أرسلهم بشريعته القائمة على توحيده في الألوهية والربوبية، وإما بيان للعقاب بأنواعه، وإما إخبار عن أحوال المكذبين الماضين، وهو بيان لمن خرج عن مقتضى توحيده جل جلاله.

والتوحيد - كذلك - هو لبُّ الإسلام وأساسه، ومنه تنبثق سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومناهجه، وكل ما في الإسلام من عبادات وأحكام يرسخها التوحيد ويقويها ويثبتها في قلوب المؤمنين، والتوحيد في هذه الصورة (عقيدة للضمير) (وتفسير للوجود) (ومنهج للحياة)، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير، إنما هو (الأمر كله والدين كله)، وما بعده من تفصيلات إنما هو ثمرة طبيعية لاستقرار هذه الحقيقة في القلوب.

ولولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات، وأدنى الموجودات، وأضعف الحيوانات، وأشد ذوي المشاعر حزنًا، وأكثرهم عذابًا وألمًا؛ ذلك لأن الإنسان يحمل عجزًا غير متناه، وله أعداء لا نهاية لهم، وينطوي على فقر دائم لا حدود له، وحاجات لا حدود لها، ومع هذا فإن ماهيته مجهزة بآلاتٍ ومشاعر متنوعة وكثيرة، إلى درجة يستطيع أن يستشعر بها مائة ألف نوع من الآلام، وينشد مئات الآلاف من أنواع اللذائذ، فضلًا عن أن له من المقاصد والرغبات ما لا يمكن تلبيتها إلا من قبل من ينفذُ حكمه في الكون بأسره، وفق تعبير د. (موسى البسيط)، في بحثه المعنون (أنموذج الإنسان المرتكز على التوحيد في ضوء القرآن الكريم).

وفي ضوء ما سبق من تأكيدات يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أن التوحيد هو أصل الإسلام كله، وإدراج الفروع تحت الأصول واحدة من سمات الإسلام العظيمة، كما أن إدراج الأصول كلها تحت الأصل الأكبر ألا وهو (التوحيد)، تُعدُّ خاصية الإسلام الحاكمة لجميع شؤون الحياة، وعليه، فإنّ التوحيد هو محور الحضارة الإسلامية، وهذه المحورية تعني أنّ الحضارة الإسلامية تعتمَد في أصولها على التوحيد، وتتفرع -بناء على ذلك- عن تلك الأصول كل الفروع من خلال استيحاء مبادئها الرئيسة لها من توحيد الإله ـ عز وجل ـ، «فما من حقيقة من حقائق الدين الشاملة، عقدية كانت أو تشريعية، إلاّ وهي منبثقة عن التوحيد

وراجعة إليه، فهو روح الدَّين كلّه، السَّاري فيه مسرى الماء من النبات، أيما موضع انسحب منه أصابه الجفاف وآل إلى التلاشي» (عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري).

وقد أمر الله بتوحيده، ونهى عن ضد ذلك، وهو الشرك، وإذا أمر الله بشيء ونهى عن ضده، فهو من عظائم الأمور أو أعظمها، فالتوحيد أعظم مأمورٍ به، والشرك أعظم منهيٍ عنه، قال تعالى: {إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} (النساء: 48)، وهذا هو الذي فهمه الفيلسوف (محمد إقبال) من كلمة التوحيد عندما قال: (التوحيد ليس ضد الكثرة فقط، وإنما هو ضد الشرك).

والآية القرآنية التي تحثّ المسلم على تعلّم كلمة التوحيد، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن التوحيد قائم على العلم، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهَّ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} (محمد: 19)، فالتوحيد هو إيقاظ ملكة العلم، والتحرر من التبعية للأصنام والتقليد، وعدم العلم هو الذي يجعل الإنسان لا يلتزم بالتوحيد، وبناء على ما سبق، يمكننا الجزم بأن العلم هو أساس التوحيد الذي يقوم عليه، ولا توحيد بلا علم، فإذا كان لا نجاة بدون توحيد، ولا توحيد بدون علم، فإنه لا نجاة بدون علم.

إن العلم والإيمان مترادفان عند من يتذوق كنه الأمور، كما أن

الشرك والجهل سواء، وفق تعبير المفكر (جودت سعيد)، وإن الله نهى عن الشرك الإيماني والجهل العلمي وعن عبادة الأشخاص في مظاهره الدينية والسياسية.

إن العلم هو طريق التوحيد، توحيد الله، وتوحيد العالم تحت ظِلال الوحدانية لله، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَّ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهَّ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: 64).

وهنا يمكن أن نؤكد تأكيدا جازما على أن التوحيد حاجة إنسانية يرتفع بها الإنسان لتحمل المسؤولية، مسؤولية كل فرد عن الإنسانية، وهذا السلوك هو الذي يضمن النجاة الأخروية، ويضمن خلاص الأفراد والمجتمعات من التخلف والإذلال، وسلطان الاستضعاف والاستكبار، وهنا تبدو وظيفة التوحيد الاجتماعية في خلق السلوك الذي تتحقق به إنسانية الإنسان ووحدة الكرامة البشرية. (فلا إله إلا الله) هي ألا يكون هناك أصحاب امتيازات في الأرض تحت أي مسمى من المسميات أو مبرر من المبررات، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهَّ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: 13).

وحين يؤمن المسلم بعقيدة التوحيد تتحول هذه العقيدة في نيّته، وفي عمله إلى قوة أخلاقية، تدفعه للحركة في الكون، لتحقيق إرادة الله

سبحانه وتعالى، ويدخل ميادين الحياة في سائر مناحي النشاط الإنساني، حتى يُحدِث التغيير المطلوب، وهذا يعني أن الإيمان بالتوحيد يُيَسِّر قبول التكليف بالعبادة بمعناها الواسع، ولذلك فإنَّ مضمون الدعوة إلى الله إنّما يبدأ من الدعوة إلى التوحيد، لمن أراد أن يدل الناس على الله.

إن التوحيد بأبعاده التي أشارت إليها كتب العقيدة الإسلامية ـ من توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات ـ يجب أن (يغلّف) كل ما له صلة بالإنسان أو ينبثق عنه، أو يؤثر فيه، وفي الكون والمجتمع،والحياة من حوله. (ابن تيمية، توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، الفتاوى).

والإنسان الموحِّد (تصطبغ) حياته بسرِّ التوحيد: مشاعره وعقله وجسده وكيانه وواقع حياته، الأمر الذي يجعله مميزًا عن كل شيء، فيحتل بذلك مكانته المرموقة، لا بين البشر فحسب، بل بين مخلوقات الكون كلها.

والتوحيد ليس مجرد علاقة بين الإنسان وربه، بل هو أعمق من ذلك حينما يرتبط بالمجالات الوجودية (الكون) والمجالات المعرفية (المعرفة)، والمجالات القيمية (القيم)، والتوحيد يجعل الإنسان يجمع كل الحقائق، ويفتح عقله لها، والتوحيد يجعل الإنسان يدرك أن الحقيقة موجودة ومتاحة، وليس هناك شيء خارج التفسير. والتوحيد يجعل الإنسان يسعى وراء الحقيقة إلى نهايتها، ويجعل الإنسان يرفض ما يتنافى

مع الحقيقة أو مع الواقع، حيث إن الله واحد والحقيقة واحدة، ويرفض التناقض، وينفتح لكل جديد بحثا عن الحق.

وبالتوحيد يقام التوازن الروحي/ المادي، وعن هذا التوازن تنتج وحدة الشخصية، والشخصية المتوازنة تبني وحدة المجتمع، وهذا بدوره يؤدي إلى القول بأن «وحدة الإنسانية تنبع من توحيد الله» كما عبّر عن ذلك المفكر الإسلامي (علي عزت بيجوفيتش).

ومن هنا، فقد جعل القرآن الكريم الرؤية التوحيدية هي الأساس المتين لبناء الشخصية الحضارية الفاعلة، حيث ارتقى بتصرفات الإنسان ووحدتها من خلال الارتقاء بتصوره الكوني ورؤيته التوحيدية التي لا انفصام لها ولا ثغرات فيها، إذ ينسجم العقل مع النقل، ويتعانق الجسم مع الروح، وتتعاون الشهوات مع الأشواق، وتنساب الدنيا مع الآخرة، دون أي تعارض أو تناقض، وفق تعبير الدكتور (فؤاد البنا).

ولا شيء في ميزان الإسلام يعدل عقيدة التوحيد في تحرير الفرد والأمة من مصادر الخوف والاضطراب، لأن التوحيد من حيث يثبِت العبودية لله وحده، والخوف منه وحده، ينفي إثباتها لأحد غير الله، وذلك بعض معاني كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). (القحطاني، الولاء والبراء).

والتوحيد الإسلامي لا يطلب منا أن نقبل بأن (لا إله إلا الله) وحسب، كما يؤكد على ذلك الدكتور (جيفري لانج)، بل أن نؤمن بها على أنها نتيجة طبيعية وحتمية لكافة الخلق من رجال ونساء، وأنهم في

الحقيقة متساوون تحت سلطة الله.

إن دلالة توحيد الخالق سبحانه تفترض أن جميع البشر متساوون أمام الله، ولهذا فإن مسؤوليتهم أمام الله مسؤولية فردية، وفق تعبير الدكتور (فتحي ملكاوي)، ويمكن قراءة تاريخ الرسل كلهم بوصفه سعيًا إلى تفكيك الهرمية الفرعونية: اعتقاديًّا بدعوة الخلق إلى توحيد الخالق، وقانونيًّا بالمساواة بين الحاكم والمحكوم أمام الشرع الإلهي.

ويمكننا أن نلخِّص ما سبق من خلال تصوير شعري بديع يبرز صورتي النفي والإثبات في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، أورده الدكتور (عبد الوهاب عزام) الذي تأثر بشعر الفيلسوف (محمد إقبال)، فجعل له مثاني أيضا يناظر فيها «إقبال»، فيقول:

إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزم ومضاء

(لا) و(إلا) قوة قاهرة فهما في القلب قطبا الكهرباء

والحرية من أثمن ما جاء به الإسلام، فالتوحيد قرين التحرير، وشهادة أن (لا إله إلا الله) إعلان عن ميلاد الإنسان الحر في هذا الكون الذي يسجد لله وحده، ويخشى الله وحده، ومن هذا المنطلق فإن الاستبداد يصبح قرين الشرك، لأنه يُحيل الناس إلى عبيد لآلهة من البشر، ويدفعهم إلى السجود لغير الله، وفق تعبير الدكتور (علي مدكور).

والتوحيد من شأنه تحرير الإنسان، عقلًا ونفسًا وقلبًا ووجدانًا، من الخراقة والأوهام وسائر الضغوط والتحيزات، التي من شأنها أن

تقلل الطاقات المعرفية الواعية لدى الإنسان، مما يؤهله لممارسة التزكية في مجتمعه، والعمران في الكون الذي استُخلف فيه، وبذلك أسس القرآن للعقلانية التوحيدية.

إن غياب الحرية يؤدي إلى ضعف القدرات العقلية وضمورها - إن كانت موجودة - مما يمهد لعودة الصنمية والوثنية والتخلف، فالحرية هي مظهر التوحيد، والتوحيد في جوهره حرية؛ لأنه تحرر من عبودية الأشخاص، والأشياء، والأفكار الخاطئة أو الخرافية، كما يذكر الدكتور (ماجد الكيلاني)، وعندها تنتقل الأمة من صفاء التوحيد إلى شرك الصنمية: صنمية الأشخاص التي أطلق عليها القرآن اسم -صنمية الأنداد- قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (البقرة: 165)، وعندها تبتكر الأمة رموزا جديدة للصنمية تتلاءم مع روح العصر وثقافته واتجاهاته ،وعندها - أيضا - تتحول الأمة من «أمة رسالة» إلى «أمة سدنة»، والفرق بين النوعين من الأمة أن الأولى تضحي بالأموال والنفوس في سبيل الرسالة ، في حين»تنفق» أمة السدنة أفكار الرسالة لتنال السلطان، وتجمع المال وترفِّه النفوس، ويتحول فيها العلماء ورجال الفكر، ومؤسسات التربية إلى التعلق برسوم العلم ومظاهره، ويشتغلون بـ «فقه» الأشكال بدل «فقه» الأعمال.

وهو ما أشار إليه الدكتور (عليان بوزيان) من كون الإسلام قد جاء كثورة تحررية لإخراج الناس من رق المعبودات البشرية؛ وقد لا نكون بحاجة إلى التأكيد بأن حقوق الإنسان في الإسلام إنما شرعت بأصل الخلق، ولم تأت ثمرة لمعاناة أو مظاهرات أو صراعات بين الحاكم والمحكوم، أو ثمرة للثورات والحروب، فانتزعت انتزاعًا، وإنما هي مقاصد الدين وغاياته العليا، ورسالة النبوة التاريخية، وعلى دروب إخراج الناس من تعبيد بعضهم لبعض جاء الأنبياء والمرسلون والمصلحون لتقرير أولوية الحرية في الإصلاح والتغيير السياسي.

إن الغرب الذي ينعي علينا نظمنا التي يتهمها قولا ويحميها فعلا، يفعل ذلك ليكيد لصورة المسلمين، فإذا رأى توجهًا عند المسلمين للحرية - والحرية عادة تفتح الباب للشعوب، والشعوب في عالمنا الإسلامي منفعلة بالدين- وَأَدَ تلك الحرية بفعله حتى تظل التهمة متعلقة بنا، وحتى ينسد الباب أصلًا دون الإسلام، وصحيح ما أكد عليه الدكتور (حسن الترابي) من أنه لا بد من توفير قدر واسع من الحرية، لأنه لا يمكن للتدين أن ينمو إلا في مناخ الحرية، وما قام نبي إلا دعا أن يعمل كلّ على شاكلته، قال تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا} (الإسراء: 84)، ويعمل كلٌّ على مكانه، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (التوبة: 105)، وألا يُلزم الواحد أخاه، وألا

يكرهه على الدين لأن التدين هو تحرر من واقع القهر والسلطان، وحتى يتعبد الإنسان لله -سبحانه وتعالى-، فالحرية لازمة من لوازم التوحيد وضرورة من ضرورات تنمية التديُّن، ولا بد من أن نهيئ لها المسلمين؛ لأن المسلمين لم يتهيئوا لهذا القدر من الحرية، فقد عهدوا في تاريخهم كله - ولا أقول في البناء السياسي وحده بل في البناء الاجتماعي أيضًا - قدرًا كثيرًا من التعبد والتذلل للسلطات البشرية، فكان الفقيه دائمًا يلقي بالفتوى ولا يُناقش أبدًا، ولا دور للعامي إلا أن يتلقى وينفذ، دون أن يراجع ويحاور، وكذلك في طوائفنا الدينية تجد الأتباع كأنهم لا شيء، عطّلوا الدين كله وأصبحوا يتحركون بإشارة من الشيخ أو الزعيم، فنحن لنا تقاليد اجتماعية وفكرية وسياسية تكرس بعض الممارسات المخالفة لقيمنا.

والحرية في التصوير الإسلامي إنما هي ثمرة لعقيدة التوحيد التي تغرس في نفوس الموحدين اليقين الجازم بأن (لا إله إلا الله) يُخاف ويُرجى؛ و(لا إله إلا الله) يُجتنب سخطه ويُلتمس رضاه؛ في فضله يطمع؛ ومن قوته يستمد؛ وإليه يُتودد؛ وإليه يُحتكم؛ وبه يُعتصم؛ كونه لوحده هو الضار والنافع، والحرية من أشرف مقاصد كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فالعبودية إنما هي لله ثم الخلق بعد ذلك أحرار مع من سواه، فالخضوع والطاعة والرغبة والرهبة هي لله وحده الذي له الخلق والملك والأمر والحكم.

يقول ابن خلدون مبينًا حقيقة التوحيد: «إن المعتبر في التوحيد ليس الإيمان فقط، الذي هو تصديق حكمي، فإن ذلك من حديث النفس،

وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس»، وتكيُّف النفس بالتوحيد معناه: تفعيلها لقيمه، وانطلاقها في تحريك الحياة من خلال مقتضياته، استخلافا في الأرض، وتزكية للنفس وتعميرا للأرض، وشهادة على الخلق.

وقد كان الآباء في عصور التخلف يحيلون الإنسان إلى شيء أو أداة مسخرة، وكان التوحيد دعوة لتحريره.

إن تتبع التاريخ الإنساني، وملاحظة ما كابدته الإنسانية من انسحاق كرامة الإنسان يؤكد أن التوحيد (حاجة إنسانية) كما يشير إلى ذلك المفكر الإسلامي (جودت سعيد)، يرتفع بها الإنسان لتحمل المسؤولية، مسؤولية كل فرد عن نفسه وعن أمته وعن الإنسانية جمعاء، إنه السلوك الذي يضمن النجاة الأخروية، ويضمن خلاص الأفراد والمجتمعات من التخلف والإذلال وسلطان الاستضعاف والاستكبار، وهنا تبدو وظيفة التوحيد الاجتماعية في خلق السلوك الذي تتحقق به إنسانية الإنسان ووحدة الكرامة البشرية.

ومن هنا، قد لا نرى الأثر المطلوب لعقيدة التوحيد في حياة الإنسان، أو على حياته، وقد لا يحس بها وبعطائها؛ والسبب في ذلك أنه تلقاها أشكالًا ورموزًا وتقاليد بالتوارث الاجتماعي والاستسلام والتسليم، دون أن يفكر في أبعادها، أو تبلغ هي بأبعادها في نفسه مبلغا يعيد بها صياغة نفسه، ودون أن تنعكس على جميع أنشطته الحياتية.

وعقيدة التوحيد في حقيقتها لا تقتصر على تمتمات وألفاظ، أو جدليات فلسفية ذهنية قد لا تحرك ساكنًا، ويكاد يكون هذا هو الفرق الأساس بين العقيدة كمحرك سلوكي اجتماعي، وبين الفلسفة كجدليات ومعارف باردة لا تحرك ساكنًا، وفق تعبير الأستاذ (عمر عبيد حسنة)، فعقيدة التوحيد في حقيقتها عمل وفاعلية، وتغيير وتحرير، ومغالبة قدر بقدر.

والتوحيد هو إيقاظ ملكة العلم في الإنسان، والتحرر من التبعية للأصنام والتقليد، فالعلم والإيمان مترادفان عند من يتذوق كنه الأمور، كما أن الشرك والجهل مترادفان وعلى سواء.

إن التوحيد خروج من الآبائية، وتعبير عن توق الإنسان إلى الحق وجعله مسؤولًا أمام الحق -سبحانه وتعالى-، إنه ملة أبينا إبراهيم عليه السلام الذي سمانا المسلمين.

والمسلم عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده، وهو في صلاته وفي صيامه وفي زكاته وفي حجه ونحره لأضحيته، ليس حاضرا بروحه وعقله وقلبه فقط، وإنما بلحمه ودمه أيضا، فهو إما أن يكون هو كله حاضرا وإما ألا يكون حاضرا البتَّة، وهذا ناتج عن التوحيد بوصفه مبدأ جامعا كما في المنظور الإسلامي، وفق تعبير المفكر الألماني المسلم (مراد هوفمان).

والاستقامة الكاملة في حياة المسلم مربوطة بالتوحيد الكامل.

وفضلًا عن أن الكون مصدر للعطايا، فهو - إضافة إلى ذلك- مرايا

التوحيد، حتى صارت عناصر الكون شهودًا كثيرة على التعريف بالله ـ سبحانه وتعالى ـ من خلال نظامه المتجلي في السنن المبثوثة في الآفاق والأنفس، والتي لها أهميتها الإيمانية في حياة المسلم.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

وفي نهاية هذا الدرب (درب التوحيد) يمكننا أن نؤكد بكل ثقة أن القرآن بكل تجلياته هو كتاب التوحيد بامتياز، فأعظم آية فيه (آية الكرسي) تتضمن صفة التوحيد الكبرى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وأعظم سور القرآن هي سورة (الإخلاص)، وهي تتحدث عن الوحدانية والصمدية في أرقى تجلياتها {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، ومن شاء أن يرى القرآن وهو في أروع حالات توقده وتألقه وتحفزه، فليَرَه وهو يتحدث عن وحدانية الله وقدرته ورحمته.

دربُ العبادة.... زاد الطريق وسُلَّم التَّرقِّي

في فلسفة الإسلام أن أعلى درجات الحرية حين تصبح عبدًا لله، فعندها تتحرر من العبودية لمن لا يستحق، بل عبدا لمن بيده المطلقات: القوة المطلقة... والغنى المطلق؛ فتستغني بغناه عن غنى كل غني، وبقوته عن قوة كل قوي، فلا تسأل إلا إياه ولا ترجُ النفع والضر إلا منه، فلا يذلّك من هو مثلك أو أعلى منك، من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا! فكيف يملك لغيره النفع والضر؟ ولن تبق هناك حرية - أيضا- لفرد تستعبده ذاته، أو تستعبده الملذات والشهوات، وإن ظن أنه حر، إلا إنه في

الحقيقة عبد مسترق لشهواته، فالحرية ليست في أن تفعل ما تريد، بل في أن تفعل الصحيح، الذي يحافظ على كمالات الإنسان، ولا شيء يحافظ على كمالات الإنسان إلا أن يتصل بصاحب الإيجاد والإمداد والإرشاد، الذي بيده الدنيا والآخرة جل في علاه.

والإنسان في عبودية الله على ثلاث مراتب، وفق تصنيف الدكتور (علي مدكور):

المرتبة الأولى: هي مرتبة عبودية الإنسان لله خضوعا لقانون الفطرة، وانقيادا لعهد الله وميثاقه الذي أخذه على بني آدم وهم بعد في ظهر الغيب السحيق حين سألهم: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟) فاعترفوا له بالربوبية وأقروا له بالوحدانية (قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا).

إن هذه الرتبة من العبودية قد لا يختلف فيها الإنسان عن الحيوان الذي لا يعقل، والشجر الذي لا يتحرك، والملائكة الذين يفعلون ما يؤمرون، والإنسان على هذه الدرجة من العبودية لا يمتاز عن غيره من المخلوقات، وهذه هي درجة العبودية التي يمكن أن نسميها عبودية الفطرة.

المرتبة الثانية من عبودية الإنسان لله: هي تلك التي يستخدم الإنسان فيها ما منحه الله من قوى الإدراك الظاهرة والباطنة في معرفة الله وعبادته، فالإنسان حين يستخدم عقله وقلبه وسمعه وبصره وعلمه في تدبر آيات الله ومنهجه المنزل في كتابه وفي سنة رسوله - صلى الله عليه

وسلم- وفي كتاب الكون المفتوح، وحين يصل من كل ذلك إلى معنى العبودية المقصودة، القائمة على العلم، وحرية الإرادة والاختيار التي خص الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات.

المرتبة الثالثة: وهي تلك التي يستخدم فيها الإنسان قواه المدركة الواعية وعلمه وحريته في الاختيار، وكل قواه ومواهبه في عبادة غير الله! فالإنسان في هذه الدرجة يفقد شرف التفوق على سائر المخلوقات، بل يصبح أحطَّ مكانة وأسوأ شأنا من الحيوانات.

وهي الحقيقة التي أكد عليها المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان) في كتابه (الإسلام مبدع العصر الحديث)، من أن الرغبة في العبادة هي غريزة طبيعية، فكل إنسان ولد على ذلك، وبسبب هذه الرغبة الداخلية العميقة يسعى الإنسان بنشاط للركوع أمام شيء ما يعتبره مقدسا، وهناك شكلان يجد فيهما هذا الشعور تعبيره: الأول هو التوحيد، والآخر هو الشرك، وقد سبق الحديث عن هذا في درب سابق أسميناه درب التوحيد.

وفي تأمله لمغزى العبادة الإسلامية وجد (محمد أسد) أنها نظام بديع مركب من التزكية الروحية والتنظيم الاجتماعي: «إن الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات الخمس فحسب، بل تشمل الحياة كلها، أما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في كلٍ واحد».

إن العبادة في الإسلام نظام متكامل لترقية الإنسان الخليفة، حتى يستحق هذا المقام الكريم ويؤدي التكليف الإلهي له على أكمل وجه،

والعبادة في الإسلام لا تقود الإنسان قط إلى عزلة اجتماعية، لأنها نظام عقلاني يربط السبب بالمسبب، وينفي الخرافة في فهم العلاقات الوجودية.

ولو تأملنا نموذجين ضرب بهما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل في ترسخ قيمة العبادة في الإنسان أو انتفائها من خلال حديثين مشهورين، أولهما قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له به حتى أرواه فشكر الله له فأدخله الجنة» (رواه البخاري)، وثانيهما أن «امرأة دخلت النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض» (متفق عليه)، وبالتأمل في هذين الحديثين، وفي ضوء درب العبادة الذي نتحدث عنه، يمكن أن نستنتج أن الغاية ليست هي طبيعة العمل الذي قام به الرجل أو قامت به المرأة، فالرجل حين سقى الكلب قام بحركة بسيطة، وكذا المرأة حين ربطت الهرة لساعات، ولكن كل عمل من العملَين دليل على درجة الترقي في سلم القيم العبادية؛ فالرجل الذي سقى الكلب لم يدفعه لذلك -وقد كان لوحده في الصحراء- إلا نضج قيمة الرحمة وقيمة ابتغاء مرضاة الله في نفسه، فدفعه كل ذلك إلى الإحسان، فعبَدَ الله كأنه يراه، وتلك أرقى صور نضج القيم وسلامتها، وفي المقابل انمحت من نفسه رذائل القسوة والرياء والاحتقار وغير ذلك، مما يكون عادة سببا في العزوف عن القيام بالكثير من الأعمال جليلة القدر بسيطة الشكل.

وأما سلوك المرأة، فدل على ضعف قيمة الرحمة في نفسها، وحضور

القسوة والجفاء مكان ذلك، وقوة دافعية البخل على قيمة البذل والكرم، والأخطر من كل ذلك أنها لم تستحضر رقابة الخالق -سبحانه وتعالى- في فعلها، فهي ما زالت تعتقد أن لا رقيب يحاسبها على عملها ذلك، وهذا أكبر خلل في منظومة القيم وعلامة خطيرة على انهيارها، وفق تعبير الدكتور (خالد الصمدي).

وهذا يقودنا إلى القول بأن أي نهوض لأمة الإسلام لا بد أن يكون قائمًا على العقيدة الموافقة للفطرة، والعبادة الدافعة للعمارة، والعقل المهتدي بالوحي، والعلم المرتبط بالإيمان، والجسد الممدود بالروح، والأخلاق المترقية بالإنسان، والعدل المؤيد بالإحسان، والتشريع المحقق للمصلحة، والأسرة التي تصون الفرد، والخير المتوشح بالجمال، حسب تعبير الدكتور (عصام البشير).

وبناء على ما سبق يمكننا أن نستنتج أن ركني السير إلى الله، اللذين يستحيل السير بدونهما هما (العلم والذكر)، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} (محمد: 19)، فلا سير إلى الله بدون علم، ولا سير إلى الله بدون ذكر، فالعلم هو الذي يوضّح الطريق، والذكر هو زاد الطريق وأداة الترقي في دروب العبادة.

والناظر في نصوص هذا الدين ومقاصده، وفق تعبير الأستاذ الدكتور (فؤاد البنا)، يجد أن كل ما يحقق للناس مصلحة في معاشهم أو

معادهم، جعله الإسلام شعبة من شُعب الإيمان به «فريضة واجبة، وكل ما يؤدي إلى مفسدة في المعاش أو المعاد، جعله الإسلام «كبيرة من الكبائر» يحرم الاقتراب منها، وهي تنتظم كل أبعاد الشخصية البشرية ومجالات الحياة الإنسانية، بحيث يصبح الكون كله محرابًا لعبادة المؤمن في مشاعره وشرائعه، في أقواله وأفعاله، في حركاته وسكناته، والإيمان الذي يدمج بين خلافة الله في الأرض وعمارتها جاعلًا منها مضمونًا للعبادة الشاملة، غير مفرق بين عبادة الله في «محراب الصلاة» وعبادته في «محراب الحياة».

وهو ما توصل إليه الدكتور البنا - أيضا - وهو يتأمل قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: 56)، وهي العبادة الشاملة في محراب الوجود والمتوزعة بين ساعات اليوم والليل، والتي يتقلب الإنسان فيها بين العلم والعمل، الفكر والفعل، الأكل والصيام، النوم والقيام، الهزل والجد، الذكر والصمت، القيام والقعود، الاختلاط والعزلة... بحيث يلتزم منهج الوسطية والتوازن والاعتدال، ويراعي المقادير ويعطي لكل عبادة زمانها ومكانها المناسبين، ففي إطار ساعات اليوم الواحد، لا أفضل بعد صلاة الفجر من قراءة القرآن مع أن القراءة مأجورة في كل وقت، ولا أفضل بعد ذلك من عبادة العمل حتى الظهر، ولا أفضل بعد الظهر من عبادة القيلولة، ولا أفضل من الصلاة في أوقاتها وأداء الواجبات المرتبطة بالخلق وقت الحاجة إليها، ولا أفضل من النوم في النصف الأول من الليل وهذا ثابت علميًّا، فقد ذهبت أبحاث علمية

إلى أن الراحة التي يكتسبها الجسم من نوم ساعة واحدة في هذا الوقت، تعدل ساعتين في النصف الثاني من الليل أو ثلاث ساعات في النهار.

والمتأمل في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين} (الفاتحة: 5)، يجد أن في كلمة إياك التفات وانتقال من حمد وذكر لله إلى خطاب له - سبحانه- مباشر، ومن باطن إيمان إلى تصديق وتعبير بحركة الحياة العابدة لله، وسبقت في الخطاب كلمة (إياك) ولم يتأخر ضمير المخاطب لتأكيد التوجه التوحيدي الخالص لله، و(نعبد) تشير إلى الحال المضارع من العبادة، ومعناها نخضع ونذل، والكلام فيها شهادة جماعة المؤمنين، فجاءت نعبد وليس أعبد، فالمؤمن لا يوحِّد الله عبادة إلا اندرج في صفٍ موحّدٍ للمؤمنين يجمعهم منهج حياة موحّدة، هديا للعبادة في عالم محيط من الطبيعة، فالأشياء كلها تعبد الله طوعًا وكرهًا، وتميزًا عن الذين ضلوا وخرجوا من بنى الإنسان. و«إياك نستعين» خطاب تأكيد أيضًا للاستعانة بالله وحده في العبادة فكل حياة المؤمنين ابتلاء لا يستغنون فيه من الاستعانة برحمة الله، من أجل إخلاص العبادة له، وبكل ما سخر لهم في الوجود المعنوي والمادي، لئلا يكون الوجود المشهود في الحياة إلا موضوعًا وعونًا لعبادة الله.

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: 56)، فهو سبحانه لم يقل أنه فعل بهم (الخلق) لكي يفعل بهم (العبادة)، فلم يقل أنه خلقهم ليجعلهم عابدين، فإن ما يفعله من الأسباب التي

يريد بها بعض المسببات لا بد أن تقع لا محالة، ولكن الله ذكر هنا أنه خلقهم ليفعلوا هم العبادة، فيكونوا هم المحصلين لها ليحصل بفعلهم سعادتهم، فيحصل له ما يحبه من العبادة، ويحصل لهم ما ينفعهم من السعادة، وبهذا يتبين أن ما خلقهم الله له لو فعلوه لكان فيه ما يحبه وما يحبونه، وإذا لم يفعلوه فيستحقوا جزاء من يترك فعل ما خلق لأجله وقصر عن مهمته.

وبهذا التفصيل الذي ذكره الدكتور (محمد السيد الجليند)، يتضح معنى الآية وما فيها من حكمة محبوبة تعود على الخالق والمخلوق، كما أنها تربط لنا بين مراحل الوجود الإنساني الثلاثة، فهناك خلق، وهناك غاية للخلق، وهناك جزاء على تحقيق الغاية.

وقوله تعالى: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (الفاتحة: 5)، أي لا نستعين إلا بك، لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا، فعمل الأول هو العمل لله، وعمل الثاني هو العمل بالله، فالعمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، والعمل لله نعت كل عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بالضمائر، كما في شرح النفري لحكم ابن عطاء الله السكندري. {إيّاك نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعِين}. هذه الآية تجعل الإنسان طالبا لأمرين: طريق العبادة وطريق العون؛ وهما يتجهان إلى الله ومنه، إن هذا الطلب مفهوم له بعدان: بسط مفهوم العبادة، وإزالة

الوسطاء.

والمؤمن الصادق المخلص، كما يصفه الدكتور (حسن الترابي) يتوحد لديه ظاهر الشعيرة وباطنها، أما الذي يتضاءل في قلبه الإيمان بالغيب وتفتنه دواعي الدنيا من هوى النفس ووحي الشيطان فإنه لا يهجر الشعائر الدينية بل يحاول أن يسترضي المجتمع بأداء الشعائر عرفًا ظاهرًا (نفاقا ورياء)، وما يجري على لسانه أو يقع من جوارحه في هذه العبادة لا يعبر عن ضمير ينطوي على ما يُشعر به من مرضاة الله، وإنما شعيرة العبادة الحق هي التي تحمل بظاهرها إشعارًا صادقًا لا يلابسه رياء، والحياة توحيد عبادة لله لا إشراك فيها، ذلك الشرك الذي لا تستقيم به بعض مساقاتها في سبيله ـ سبحانه وتعالى ـ، أو أن بعضها تنفصل وتنشق عن ذلك السبيل، والوجدان الباطن إيمان خالص بالله، والغيب والظاهر مسلك تعبدي على شرعه وهديه، والحياة للمؤمن صادقة لا نفاق فيها، بدعوى إيمان لا يشهد عليه العمل الصالح، أو بعرض عمل يرضي المؤمنين لكنه لا يؤسس على دوافع مرضاة الله، والدين عبادة قانتة وطاعة مجاهدة واستعانة بالله يستمد بها المؤمن العابد بعد بلاغ وسعه التوفيق، وهي من ثم نهضة راقية وقربى لله جل في علاه.

والعمر منذ بلوغ الرشد كله عبادة ما وسع الإنسان، عبر كل مواسم الحياة وعهودها المتقلبة المتغيرة، واليوم كله كذلك، حيثما تطورت مناشطه وراحاته من يقظة الصباح إلى بكرة الضحى، ومن وقت الغدو

إلى فترة الرواح والأصيل إلى سكنة الليل والجنوح إلى النوم.

والإسلام ربط ربطا وثيقا بين وظيفتي الإنسان الدنيوية والأخروية، وهما: عبادة الله والقيام بالقسط، فقد وردت العبادة في القرآن الكريم تعليلا للحكمة من الخلق: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات: 56، وورد القيام بالقسط تعليلا لإرسال الرسل وإنزال الكتب: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} الحديد: 25، ووردت الغايتان متلازمتين أحيانا: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} الأعراف: 29.

إن الإيمان والعبادة أمران عظيمان ولكنهما في صناعة الحياة جزء من المعادلة، فمن أراد الحسنيين: الدنيا والآخرة، فيجب أن يكمل شروط عمل الدنيا وهو شق (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) التي بها تنمو حياة البشر، فمعادلة القرآن تشير إلى بعد السماء: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ}، وإلى بعد الأرض {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} البقرة: 3. والإسلام من حيث هو دين تحدث عن الاعتقاد ففصل، وربط الدنيا بالآخرة، فطرح ثلاثية: الغيب والإنسان والعمل الصالح، وهو منظور تدعمه منظومات عبادية وظيفتها ربط المخلوق ببعدين ذكرهما الدكتور (جاسم سلطان) هما:

البعد الأول مرتبط بالسماء، والبعد الثاني مرتبط بالأرض وإعمارها، فالإيمان والعبادة الصرفة توجه إلى السماء، والعمل الصالح والسعي في

الأرض متجه إلى الأرض بالفعل، وقاصدا لله بالنية، وفي فضاء الاعتقاد والعبادة تفصيل نصوصي كبير، ولكن كلما اتجهنا إلى فعل الإنسان في الأرض نجد أن التفصيل يقل، فيجعل الأصل الإباحة والمحرمات استثناء، ويجعل النص مفتوحا على الاجتهاد والنظر ليتسع لتطورات الإنسان ونموه.

إن الإنسان في نظر الإسلام ليس شقين منفصلين: شقا أرضيا يعمل وشقا سماويا يتعبد، وإنما العبادة عمل والعمل عبادة، والإنسان بشقيه شيء واحد، لأنه منذ مولده الأول قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ممتزجين غير منفصلين، ومن ثم فليس شيء في كيانه منفصلا عن بقية الكيان، الروح والعقل والجسم كيان واحد، والعمل والعبادة كيان واحد، والدنيا والآخرة كيان واحد، وكل عمل يقوم به الإنسان صادر عن كيانه كله، وكل لحظة من حياته هي للدنيا والآخرة في آن، والعمل والعبادة أمران مرتبطان: فكل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة، بل هو العبادة، كما يؤكد على ذلك الأستاذ (محمد قطب).

والشمول في العبادة يعبر عن اتجاه في التربية الإسلامية يستهدف أن يُربطَ الإنسان في كل أعماله ونشاطاته بالله، ويُحوّل كل ما يقوم به من جهد صالح إلى عبادة مهما كان حقله ونوعه، ومن أجل إيجاد الأساس الثابت لهذا الاتجاه وزعت العبادات الثابتة على الحقول المختلفة للنشاط الإنساني، تمهيدا إلى تمرين الإنسان على أن يسبغ روح العبادة على كل

نشاطاته الصالحة، وروح المسجد على مكان عمله في المزرعة أو المصنع أو المتجر أو المكتب، ما دام يعمل عملا صالحا من أجل الله تعالى .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يركز على أن يعبد من أجل تكريس ذاته وهو الغني عن عباده، لكي يكتفي منهم بعبادة من هذا القبيل، ولم ينصب نفسه هدفا وغاية للمسيرة الإنسانية لكي يطأطئ الإنسان رأسه بين يديه في مجال عبادته وكفى، وإنما أراد بهذه العبادة أن يبني الإنسان الصالح القادر على أن يتجاوز ذاته ويساهم في المسيرة بدور أكبر، وفق تأكيد الأستاذ (محمد باقر الصدر).

والعبادة عمل إيجابي، يكون قصد القلب فيه لله، ويجب أن يساهم إنسان العبادة الحقة في إرث الأرض، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} (الأنبياء: 105 ـ 106). «وإذا لم تحثكم عبادتكم على المساهمة في إعمار الأرض، ففي هذه العبادة خلل»، كما قال الدكتور (أحمد خيري العمري).

والإنسان مصلحي بامتياز، ولكن أي مصلحة يريد؟ هنا يفترق الطريق، فهناك من يريد أن تتحقق مصلحته بالعدل والمساواة والإنصاف والتراضي والإيثار والتعاون والأخوة الإيمانية والإنسانية، وهناك من يريد أن تتحقق مصلحته مغموسة بالدم والدموع والمآسي والويلات والحروب والدمار، وشتان بين الطريق الموصل إلى كلا المصلحتين.

مصلحة الدنيا ليست تهمة يتهم بها المؤمن، الذي يسلك إليها سبيلها القويم، وليست مرفوضة كونها بديلا عن المصلحة الأخروية كما يظن البعض، أما مصلحة الآخرة فهي مطلوبة مرغوبة غير مُفرطٍ فيها عند العقلاء، وإذا تعارضت مع مصلحة الدنيا قدمت مصلحة الآخرة باتفاق جميع العقلاء.

لا أدري كيف تسللت إلى الضمير المسلم أن عبادة الله مطلوبة لذاتها فقط، دون أن يترتب عليها جزاء في حال القيام بها أو تركها، وكذا الحال مع المعصية في حال اقترافها أو حبس النفس عنها، أقول هنا: لقد دخلت بعض تصورات الشطح الصوفي، فنزعت عن الطاعة ما يترتب عليها من جزاء (مصلحة)، ونزعت عن المعصية ما يترتب عليها من جزاء (مفسدة أو ضرر)، ففقدت العبادة بعض دوافعها الفطرية في النفس الإنسانية، فخفتت المسارعة والتسابق إليها، قال تعالى: {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} (المؤمنون: 61)، وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الحديد: 21)، وقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} (آل عمران: 133). ولا أعتقد أن في قول الله تبارك وتعالى للصحابة رضوان الله عليهم في غزوة أحد: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ...} (آل عمران: 152) ذما لمصلحة الدنيا

والرغبة فيها، بل عاتبهم ربهم لتقديمهم مصلحة الدنيا الصغيرة الفانية على مصلحة الآخرة الكبيرة الباقية، وفي هذا إشارة وتنبيه للصحابة كي يدركوا فقه (الأولويات والموازنات)، وطبيعة الترجيح بين المصالح في حد ذاتها، والمؤمن مطالب بأن يدعو الله دائما، باحثا عن مصلحة الدنيا والآخرة، مرددا قوله تعالى: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (البقرة: 201). وتأمل معي كلمة (حسنة) تجدها جاءت بنفس اللفظ مع الدنيا ومع الآخرة، وفي هذا إشارة - من وجهة نظري - إلى ارتباط حسنة الدنيا بحسنة الآخرة، وتكاملهما، وصيرورة الأولى إلى الثانية.

والإسلام يعد كل عمل قابلا لأن يضيف ولو القليل إلى القيمة الإجمالية للكون، داخلا في مفهوم عبادة الله، طالما تم القيام به ابتغاء مرضاة الله، وفق تعبير الدكتور (إسماعيل الفاروقي)، وإتقان الشخص لعمله يصبح شكلا من أشكال العبادة وفريضة دينية من السهل تحقيقها من خلال الالتزام بالإيمان وقناعاته.

والعالِم على غير عمل كالسالك على غير طريق، والعامل على علم يفسد أكثر مما يصلح، وفق تعبير ابن عبد البر، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بسيوفهم على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وهذا الصنف من الناس لم يهذب نفسه بالأخلاق التي

بعث صاحب الرسالة ليتمم مكارمها (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) والحديث رواه البزار وإسناده صحيح، وقد وصفهم الشيخ (محمد الغزالي) بقوله: «إن صور العبادة عند هذا الصنف غطاء لقلب غليظ، وغرائز فجة، وهو يجد متعة في قضايا الخلاف ليثور ويفور، وظاهر أمره الغضب للدين، وهو في الحقيقة ينفّس عن طبيعة معتلة، وتربية ناقصة أو مفقودة.

وقد ربط الإسلام بين الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني بالارتقاء في درجات حسن الخلق؛ وذلك لأن السلوك الأخلاقي النابع من المنابع الأساسية للخلق النفسي في الإنسان، موصول هو والإيمان وظواهره وآثاره في السلوك ببواعث نفسية واحدة، فصدق العبادة له عمل «أخلاقي» كريم لأنه وفاء بحق الله على عبيده، وحسن المعاملة مع الناس «وفاء» بحقوق الناس المادية والأدبية، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة، فإذا تعمقنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعان للحق واعتراف به، رأينا أن الإيمان أيضا عمل «أخلاقي» كريم.

وهنا، فإنني أتساءل مع الدكتور (وليد سيف)، عن طبيعة الجدال الدائر حول مفارقة الخلق الحسن لمن يدعي الإيمان ويحافظ على العبادة، وتوفر حسن الخلق عند من يظن في حالهم عدم الإيمان وترك العبادة، وكأنه لا يسع الإنسان إلا أن يكون أحد هذين: إما عبادة مع سوء معاملة وخلق، أو حسن معاملة وخلق مع الانصراف عن العبادة، أمّا أن الدين يفرض الجمع بين هذين الأمرين (العبادة وحسن الخلق)، فلا يحضر في

مثل هذا الحجاج، وما ذاك إلا من قبيل الحيل الذهنية النفسية، لخلق الشعور بالرضا الذاتي ومدافعة الشعور بالذنب. فإذا تسامع بعضهم بما يطعن في سلوك بعض المتدينين أو فكره أو فهمه المنحرف المتطرف للدين، ظن بنفسه خيرا على سبيل المقارنة، وحسب بأنه بذلك يقيم الحجة لنفسه، بقدر ما يقيمها على الطرف الآخر، وتغافل عن حقيقة أن حجة الدين، عند من يؤمن به، تقوم على الطرفين، وأن الحجة على أحد الطرفين ليست بالضرورة حجة للآخر، وأن الأصل محاكمة الذات بمعايير المثل الأعلى، لا بالمقارنة بالنماذج الناقصة.

والحق أن المتدينين ليسوا ملائكة معصومين، وأن منهم من لا يستوي ظاهره مع باطنه، ومن يعمل بغير ما يقول، ومن يغلو في دينه غير الحق، ومن يحتال لأهوائه وأغراضه ومصالحه بالتأويلات المنحرفة، ولكن إطلاق الحكم على ذلك النحو ظلم فادح ومخرج مرذول، ومنطق الاحتجاج بتلك الطريقة للخروج من أزمة الشعور بالتقصير منطق فاسد، ولعل المنكِر بإطلاق أكثر انسجاما مع نفسه.

يظن البعض أن درب العبادة درب شاق وموحش ومتعب، وهذا غير صحيح جملة وتفصيلا، فعلى جانبي درب العبادة تظهر الظِلال الوارفة للراحة والطمأنينة والسكينة والجمال، حيث تكون العبادة في هذا السياق دوحة وارفة يأوي إليها المتعبون ليرتاحوا، ويقصدها المهمومون ليطمئنوا ويأنسوا، ويسارع إليها الخائفون ليأمنوا، فالعبادة ملاذ كل خائف ومرهق

ومهموم، يجد فيها الجميع راحة نفسه وطمأنينة قلبه، كما يجد فيها برد السكينة، الذي يغمره من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه.

وفي هذا السياق يمكن أن ندرك الاشتياق النبوي الذي كان يترجمه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمناداته لبلال بن رباح رضي الله عنه بقوله: (أرحنا بالصلاة يا بلال)، فالصلاة راحة بعد تعب، وأمان بعد خوف، وسكينة وطمأنينة بعد عناء، وما يقال عن الصلاة يمكن أن يقال عن أي عبادة أخرى، فالعبادة هي (قرة عين) العابد وثمرة فؤاده، يجد فيها ضالته المنشودة، كما يجد فيها ملاذه الآمن من ضنك الدنيا ولأوائها، فالإنسان خلق للعبادة وخلقت له الدنيا ليستعين بها، ومن المعيب في حقه أن ينشغل (بما خلق له)، وهي الدنيا، (عما خلق له) وهو شرف العبادة لله.

والعبادة ذاتها هي حالة من الجمال، لأن فيها اتساق مع حركة الكون العابد الساجد لربه، وجزاء هذه العبادة الوفاق مع هذا الكون العابد كجنة دنيوية، وهناك جنة مثلها في الآخرة يخلّد فيها الإنسان فيجد فيها نعيما كبيرا، يقابل ذلك صور القبح والتشاكس، جزاء للذين شذوا عن الكون وشاكسوه وكفروا نعمة الله وغفلوا عن آياته، وفق تعبير الدكتور (حسن الترابي)، والعبادة ليست واجبا على الإنسان نحو خالقه فحسب، ولكن جسم الإنسان وكيانه مصمم على نحو يحتم عليه العبادة، وارتباط الإنسان بالله هو الأصل، وعدم التزامه بذلك هو الانحراف.

والعلاقة بالله تعالى عقيدة وعبادة بحاجة إلى العلم. والعلاقة بالناس والتعامل معهم بحاجة إلى العلم. والعلاقة مع الكائنات الأخرى ـ غير الإنسان ـ بحاجة إلى العلم، والعلم في ظلال هذا الدين ليس معرفة بإرادة يتمتع بها العقل، أو ثقافة نظرية، أو فلسفة أرسطية، ولكنه العلم الذي ينتج عملا، فما أن تصل المعلومة إلى مكانها في كيان المسلم حتى يحدث ذلك التفاعل المنتج للطاقة الفاعلة، إنه تفاعل مع كيان الإنسان كله، فهو (للعقل معرفة)، و(للقلب يقين)، و(للجوارح طريقة عمل)، وكلما عظم العلم، كلما كان الأداء أحسن، حتى يصل في النهاية إلى الإحسان، الذي يعد ذروة سنام الجمال في هذا الدين، إنها لوحات سماها الدكتور (صالح الشامي): لوحات يعيشها القلب عبادة، ويعيشها الفكر تأملا وصفاء، وتعيشها المشاعر أحاسيس رقيقة.

والتفكر مَحْمَدَةٌ عظيمة، وعدم التفكر مذمّةٌ شنيعة، وهو ما أكده قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروي موقوفا على أبي الدرداء، وروي موقوفا على الحسن البصري: (لا عبادة كالتفكر)، وما شرع التفكر على هذا النحو من التشديد إلا لأنه ينتهي فيما ينتهي إلى تكوين عقل نبيه قادر على إدراك الحقائق وراء الصور المشهودة، فكان ذلك توجيها يقصد فيما يقصد إلى حفظ العقل بالتفكر، والتفكر شرف لهذا العقل الذي كرّم الله به الإنسان، والتفكير عبادة لا تقبل النيابة، والعلم يكون نورا بين يدي من يبحث عن الحقيقة، وقد يصبح العلم نارا بين يدي من يبحث عن الجاه والقوة

والثـروة في غيـاب المعيـة الإلهيـة.

والعمـل الفنـي الحيـاتي التركيبـي هـو نـوع مـن العبـادة في الإسـلام، وفـق تعبـير الدكتـور (أسـامة القفـاش)، ولـذا سـنجد أن كثـيرا مـن الفنـون الموسـومة بالإسـلامية كقـراءة القـرآن وتجويـده والخـط العـربي هـي ضرب مـن ضروب العبـادة وتكريـس لعظمـة الخالـق جـل جلالـه.

فالفـن في الإسـلام تمجيـد للجـلال وتسـبيح بالجـمال، أو هـو انتقـال مـن الجميـل إلى الجليـل، وهدفـه هـو الوصـول والتوسـل للخالـق سـبحانه مـن خـلال تصويـر الجـمال في الحيـاة وفي الكـون الـذي هـو إبـداع الخالـق جـل في عـلاه.

وبنـاء عـلى ذلـك يجـب علينـا رؤيـة الجـمال في العبـادة كظاهـر وباطـن وأصـول ومحاسـن، وأن نحـث بعضنـا بعضـا عـلى التفكـر والشـغف بالعبـادة ومحبتهـا، تلـك المحبـة النابعـة مـن رؤيـة الجـمال والمتعـة والسـكينة والاطمئنـان فيهـا، ومـن أهـم الأفـكار في هـذا الصـدد مـا قالـه (داود الأنطاكـي) حـول طبيعـة الحُسـن: «وأن الحُسـن مـا اسـتنطق اللسـان بالتسـبيح»، فهـذه المقولـة المعرفيـة البليغـة تجسـيد رائـع لحياتيـة الفـن وتركيبيتـه وارتباطـه بالعبـادة، فنحن نسـبح الخالـق ونحمـده عندمـا نـرى الـشيء الجميـل ونقـول (الله) كعلامـة عـلى انبهارنـا بالجـمال، هـذا الجـمال الـذي يدعـو إلى العبـادة هـو مـا عـدّه داود الأنطاكـي الجـمال الحـق، وقـد صـدق فيـما قـال.

ومـما سـبق يتبـين لنـا أنّـه لا خصومـة بـين الإسـلام وبـين الجـمال، وأنّ

الجمال بعض من صنع الله وآياته سبحانه وتعالى، الّتي أبدعها وأودعها في هذا الكون، وأنّ طلب الزينة هو مقتضى الفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها، وأنّ إدارة الظهر لصفات الحُسن ومظاهر الجمال يعد من الانحراف الّذي جعل العبادة رهبانية مبتدعة ينكرها الإسلام.

لم يتعرض مصطلح من المصطلحات للتشويه والاجتزاء كما تعرض مصطلح الجهاد على وجه الخصوص، حيث تعرّض للتشويه من خصوم الإسلام، حتى صار مرادفا للإرهاب، وتعرض للاجتزاء من كثير من المسلمين عموما، وبعض علمائهم ومفكريهم خصوصا، حتى صار محصورا في القتال فقط، وبين التشويه والاجتزاء غُيِّبت معاني الجهاد السامية، وتراجع دوره في حياة المسلمين، حتى أصبح أي حديث عن الجهاد عند البعض إنما يتم بصوت خافت، وعلى استحياء عند البعض الآخر، نظرا لوطأة الضغوط الإعلامية المركزة على مفهوم الجهاد، واعتبار الحديث عنه حديثًا عن الإرهاب وترويجًا له.

وموضوع الجهاد من أعظم الموضوعات خطرا، وأبعدها أثرا، لما له من قيمة وأهمية في الحفاظ على هوية الأمة والدفاع عن كيانها المادي والمعنوي، وعن أرضها وأهلها، وعن رسالتها التي هي مبرر وجودها وبقائها، وبغير الجهاد يصبح حِماها مستباحا، ودم أبنائها رخيصا رخص التراب، وتغدو مقدساتها أهون من حفنة رمل في صحراء، وفق تعبير الدكتور (يوسف القرضاوي)، فتهون الأمة عند أعدائها، فيتجرأ عليها الجبان، ويتعزز عليها الذليل، وتغزى الأمة في عقر دارها، ويتحكم

أعداؤها في رقابها.

ولأن حديثنا عن الجهاد - في سلسلة مقالاتنا المتتالية -، سيكون بمفهومه القرآني والنبوي الشامل والواسع، الذي يعد القتال أحد فروع الجهاد، في حين أن هناك فروعًا لا حصر لها يمكن أن يدخل عليها مسمى الجهاد إذا صدقت النية، وقدرة الأمة على المرابطة والقيام بكل فروع الجهاد يحميها ويحفظ عليها قوتها في الداخل، أما عندما تخفق الأمة في ميادين الجهاد المتنوعة فإن هذا يضعفها داخليا، ويؤدي إلى تمزقها ودخولها في حروب بينية، تستنزف مقدراتها البشرية والمادة في الداخل، وتغري أعداءها بالتسلط عليها ونهب خيراتها، وهذا ما عليه الأمة في مجملها اليوم.

والحديث عن الجهاد يجرنا إلى الحديث عن الاجتهاد، فكلا المصطلحين ينحدران من جذر واحد (الجيم، والهاء، والدال)، الذي يعني بذل الجهد، واستفراغ الطاقة، سواء كانت عقلية أو جسمية، مادية أو معنوية، فردية أو جماعية، ولهذا كان الاجتهاد ضروريا للجهاد، فبدون الاجتهاد يصبح الجهاد انتحارا، لأنه سيعني أننا نقذف بأنفسنا دون سابق معرفة، وبدون الجهاد بمفهومه الواسع يصبح الاجتهاد مجرد تنظير وسجال كلامي لا يصلح فسادا ولا يبني أمة.

لقد توقف المسلمون مرتين: مرة حين أغلقوا باب الاجتهاد، والثانية حين تركوا الإعداد الذي أمروا به بكل صوره، كباب من أبواب

الجهاد، فحين أغلقوا باب الاجتهاد توقف امتداد العقل المسلم، وتم اجترار آراء واجتهادات السابقين، الذين اجتهدوا لزمانهم، واجتهادات زمانهم قد لا تصلح لزماننا، وحين تركنا الجهاد بكل صوره وأنواعه، تم غزونا واحتلالنا عسكريا وسياسيا وفكريا واقتصاديا.....الخ.

والجهاد صنو الاجتهاد وقرينه، وعند توقف أحدهما يتوقف أو يتراجع الآخر، فلا جهاد في زمن التقليد والتبعية، ولا اجتهاد في زمن الاحتلال واستلاب الأمة وتمزيقها، وما الأمة واقعة فيه خير شاهد، فلا اجتهاد ولا جهاد، إلا من بعض النسمات الجهادية والاجتهادية هنا أو هناك، ومع هذا، هناك من يدعو إلى إغلاق هذين البابين المغلقين المعطلين أصلا، إنه لا حل للأمة إلا بفتح هذين البابين وبدون بوابين طبعا: باب الاجتهاد لحماية الأمة من الداخل، وباب الجهاد بكل صوره لحماية الأمة من الداخل والخارج.

والجهاد كمصطلح لم يكن متداولا في اللغة العربية قبل نزول القرآن، بل هو مصطلح قرآني خالص عام الدلالة، حصره الفقهاء لاحقا في بعد قانوني مرتبط بالقتل، وقتال الكفار خاصة، وتناوله المتصوفة ليحصروه بدورهم في إطار مكابدة النفس البشرية، والعمل عليها بغية تهذيبها والارتقاء بها.

وقد كان لخصوم الإسلام القريبين من حداثيين وعلمانيين وأعداؤه البعيدين موقف من مصطلح الجهاد، فقد أرهبوا كل من يتحدث عنه،

إلى درجة أن البعض صار يخاف من الحديث عن مجرد (القوة) في الإسلام، مخافة أن يوضع قوله في خانة الإرهاب، بل وصل الحال إلى مطالبة عدونا لنا، عن طريق وكلائه من بني قومنا، بإعادة النظر في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تتحدث عن الجهاد، في مناهجنا التعليمية، وباقي مؤسساتنا الثقافية والإعلامية، تمهيدا لإلغائها وإسقاطها تماما، وما تطوير المناهج (مدفوعة الأجر ومحددة الهدف) عنا ببعيد.

لقد صرنا كمسلمين نتحدث عن الجهاد (ذروة سنام الإسلام) على استحياء، وعندما نذكره نسارع إلى القول أننا لا نقصد به المعنى الشامل للجهاد بل نقصد به جهاد النفس أو بعض جوانبه التعليمية والثقافية، وقد يكون ما نبرر به موقفنا هذا في بعض جوانبه صحيحا في حال انعدم الضغط الذي يجعلنا نقدِّم هذه التبريرات المهزوزة والمهزومة، أما والأمر غير ذلك ففيما نقدمه من تبريرات نظر، وهو أقرب إلى الهزيمة منه إلى السياسة والدبلوماسية، كما هو حال من يسوقون لهذا التوجه.

إن موضوع إرهاب العدو من خلال الإعداد وامتلاك القوة التي تلزم العدو حده، لا يتوقف عند إرهاب العدو وتخويفه حتى لا يستبيح أوطاننا، بل هو غرس وتربية وترسيخ لمكامن الشجاعة والجسارة والرجولة والقوة في نفوس أبناء الإسلام، الذين أصابهم الخور والاستخذاء والهزيمة النفسية (حب الدنيا وكراهية الموت)، فالجهاد والشجاعة (قوة قلب)، وقوة إرادة قبل أن تكون (قوة سلاح وساعد)، وليكن أبناء الإسلام على

بينة من أن الضعفاء لا يصنعون سلاما، بل هم وقود الحروب.

إن من يصنع السلام ويبذله ويعطيه للآخرين هو القوي التقي، الذي يملك القوة، ولكنه يستخدمها لترسيخ السلام لا لشن الحروب.

والإطلاقية، التي يتبناها البعض، سواء في السلام أو الحرب رؤية قاصرة، لكننا عندما نوسع الرؤية سلاما وقتالا، وتوضع جميع النصوص المتعلقة بالسلم أو الحرب على صعيد واحد، ثم توضع بجوار ذلك مقاصد الإسلام العامة، مضافا إليها حسن فقه النص، مع حسن فقه الواقع. .... عندها يمكن الخروج برؤية ناضجة عن الجهاد والسلام، تصبح مشروعا يتم العمل به في واقع المسلمين، حسب ظروف المرحلة التي يعيشون فيها.

إن القوة من غير عقلٍ واعٍ وضميرٍ يقظٍ تحوّل صاحبها إلى قاطع طريق، مهما كان مسمى الدين الذي ينتمي إليه، والقوة وسيلة لإقرار الحق والدوران في فلكه، فإذا خرجت عن هذا الإطار تحولت إلى اعتداء وطغيان، والإسلام يهذّب سلوك المسلمين في استعمال القوة، حتى لا يتحولوا إلى وحوش، فيحثهم على عدم استخدام القوة إلا بعد استنفاد جميع الوسائل الممكنة، فيكون استعمال القوة آخر الحلول، وتستخدم القوة في أضيق نطاق، فإذا أدت مهمتها أصبح استخدامها بعد ذلك تجاوزا في الحد يرفضه الإسلام ويشنع بمقترفيه.

وبناء على ما سبق، أعتقد أن رؤية الإسلام (الجهادية) بمفهومها

الشامل، والتي يندرج تحتها كل جهد يبذل (فكرا وتعليما واقتصادا وقتالا ..... إلخ)، هي رؤية تكاملية وليست تجزيئية، بمعنى أنها رؤية تربي المسلم على كل صور الجهاد، فلا تبني الجسم على حساب الروح، ولا تبني الروح على حساب العقل، وهكذا مع بقية الجوانب، (رهبان بالليل فرسان بالنهار)، (المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين)، (لست بالخب ولا الخب يخدعني)، (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير).

وأظن أن الإشكالية في فهم الجهاد (وخاصة الصورة القتالية منه)، وبالمقابل فهم عملية السلام، تأتي من اجتزاء النصوص وبناء الأحكام على نصوص غير مكتملة التصور للجهاد وللسلام وفق الرؤية الإسلامية الشاملة، ولذا فكل فريق يدلي بدلوه فيقدم ما يراه الأولى حسب أدلته، دون أخذ لأدلة الطرف الآخر في الحسبان، وهنا يظهر التمسك بالرأي الذي قد يصل إلى حد التعصب، وهذا يقودنا إلى القول إن كل ما أثبته الطرفان لأنفسهما في الغالب صحيح، إذا لم يكن هناك نصوص مقابلة للطرف الآخر، أما عند وجود أدلة صحيحة صريحة عند الطرف الآخر (وهو الواقع فعلا)، فعندها يحتاج الموضوع إلى فهم ودراسة أخرى تأخذ في الحسبان أدلة الطرفين، ويأتي بعد ذلك الترجيح للأخذ بأحد الرأيين (السلم أو القتال مثلا) بناء على فقه النص، وفقه الواقع، وما تمليه مقاصد الشريعة في هذه الحالة، وهذا مرتبط بالاجتهاد والبحث أولا وأخيرا.

والأصل أن يكون المسلمون أعلم من غيرهم بدينهم وبشرائع ملتهم، وحدوث العكس يعد من البلاء العظيم. وفي موضوعنا الذي نكتب عنه (درب الجهاد والاجتهاد)، أظن أن غير المسلمين يدركونه أكثر مما يدركه كثير من فقهاء المسلمين وعامتهم، ولذلك نجد الغرب يتعامل معنا (حربا وسلما) حسب فهمه هو للجهاد لا حسب فهمنا نحن، والذي نحاول بشتى الوسائل أن نوصله له، ونسوّق أنفسنا من خلاله.

الغرب يدرك أن رؤية بعض الدعاة والمفكرين (المتساهلين المتسامحين) للجهاد ليست الرؤية الصائبة المجمع عليها بين عموم المسلمين، ولذلك يتركونهم يتحدثون عن هذه الرؤية، بل ويدعمونهم ويقدمونهم على غيرهم من العلماء والفقهاء الأوثق فهما والأوسع علما، فيُدعَون لحضور المؤتمرات، وإقامة الندوات، ويستضافون في الفضائيات، وتنشر كلماتهم وبحوثهم في الصحف والمجلات والدوريات، ويتم ذلك عن طريق وكلاء الغرب من الحكام ورؤوس الأموال من بني جلدتنا، وهناك أمثلة لهذا الصنف لا تخفى على المتابع الحصيف.

وبالمقابل يدرك الغرب أن رؤية (المتشددين) في موضوع الجهاد مع إغلاق باب السلم تماما لا تمثل الرؤية الإسلامية على حقيقتها، ولذلك قام الغرب الاستعماري باستغلال العاطفة الجياشة لدى الشباب المتعطش للجهاد، كما استطاع الغرب أن يوظف الكثير من شباب هذه الفئة لصالحه، وتحالف مع هذه الفئة في مرحلة من المراحل (أفغانستان

نموذجا)، ثم واجهها ونكَّل بها عندما انتهت مهمتها بالنسبة له، وخرجت عن بعض ما يريده لها، هذا إذا لم نعتبر أن جزءا لا يستهان به من هذه الطائفة في نسختها الأخيرة هي صنيعته وتشكلت على عينه، وقد تم له اختراق هذه الطائفة إلى درجة أنه صار يديرها من داخلها، ويوجهها الوجهة التي يريد، وتحقق له من خلالها وبها ضرب مقومات الأمة في عمومها، وما حال بعض الدول العربية والإسلامية عنا ببعيد.

ولا استبعد أن يكون للغرب يدٌ في انتشار هذه الطائفة في أحدث نسخها لها، حيث قام بدعمها لوجستيا، وتواصل معها بشكل أو بآخر لتنفيذ أجندة معينة يرغب الغرب في تنفيذها على طول العالم الإسلامي، من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، سواء كان هذا الأمر بعلم هذه الطائفة وإدراكها أم لم يكن كذلك.

علينا أن ندرك أننا مهما برزنا للغرب بأن الإسلام دين السلام والتعايش - حسب رؤيتنا القاصرة الاستسلامية - إلا إن الغرب يدرك جيدا أن هذه ليست رؤية الإسلام للجهاد الذي قرأه وحلله بتمعن في مراكز أبحاثه، من خلال تحليله وتعمقه في فهم القرآن والسنة والسيرة وتراث الإسلام، فهو يعرف أن الجهاد الذي نتحدث عنه ونحاول أن نتوارى خلف بعض عناوينه التي لا تغضب الغرب، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هو الجهاد الذي قرأه وفهمه من خلال ثوابتنا، ولا يمكن أن تنطلي عليه تخريجاتنا الانهزامية، فهو يدرك ربما أكثر منا معنى

الجهاد والإعداد له، وإظهار الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون. وأعتقد أننا لو كنا في مستوى ديننا فهما وتطبيقًا لكان الآخر الغربي أكثر احتراما لنا في أحسن الأحوال، وأكثر هيبة منا في أسوأ الأحوال.

إن الغرب على استعداد لمجاراتنا في محاولة التلفيق التي ندعيها عن ديننا وعن الجهاد خاصة، وسيتفرج علينا ويستفيد من شدة غبائنا، مع إدراكه جيدا أن صحوتنا في يوم من الأيام وفهمنا لديننا على النحو الصحيح ليست في صالحه، وهو بهذا يحاول وبإصرار أن يقطع علينا الطريق، حتى لا نصل إلى هذا اليوم.

وقد أشرت في المقال السابق إلى أن الإطلاقية في أمر السلم والحرب ليست صائبة، وأكرر القول بأن الإسلام ليس دين القتال بإطلاق وإن كان الجهاد إحدى ملامحه، كما أنه ليس دين التسامح والسلام بإطلاق وإلا اعتبرنا كل الغزوات والفتوحات اعتداء وتعديا على الآخرين، والإسلام كذلك ليس دين دفاع بإطلاق ولا دين هجوم بإطلاق، الإسلام كل ما سبق حسب ظروف الزمان والمكان والحال والمآل والمقصد، فإن (جنحوا للسلم فاجنح لها)، وإن قاتلكم الأعداء (فقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة).

الإسلام الوديع جدا الذي تحبه أمريكا، يقابله الإسلام العنيف والدموي جدا الذي تحبه أمريكا أيضا، ولدى أمريكا القدرة على التعامل مع طرفي النقيض والاستفادة منهما معا، وإن كانت تقول غير ذلك،

والإسلام وسط بين هذين التطرفين، ويمكننا أن نضرب مثلا عايشناه في السنوات الماضية، ولا زلنا نعيش بعض فصوله حتى الآن، فعندما ركّزت (القاعدة) على ما في القرآن والسنة من قضايا الجهاد والولاء والبراء، وكونت لها فكراً جهاديا، وترجمته إلى أعمال ومواقف، ومثلها (الجامية)، التي كونت لها فكرا من الولاء والطاعة للحاكم، وترجمته إلى أعمال ومواقف، فكانت النتيجة أن القاعدة تصادمت وقاتلت حتى من لا يجوز قتالهم من المسلمين وغيرهم، والجامية أعلنت تأييدها حتى لمن لا يجوز طاعتهم من أعداء الإسلام والمسلمين.

وفي هذا المقال سنعرّج على الاجتهاد بوصفه صنو الجهاد كما أسلفنا في بداية هذه المقالات، فإسلام بلا اجتهاد يعني إسلاما بلا عقل. والاجتهاد والتجديد حالتان عقليَّتان ونفسيَّتان، توجدهما في الإنسان رؤيته الكليَّة، ووعيه بمقاصد خلقه، وأهداف وجوده، وإدراكه للقراءتين (للكتاب المسطور وهو القرآن، والكتاب المنظور وهو الكون)، وضرورة الجمع بينهما، في كل نوع من أنواع المعرفة أو العمل، وفق تعبير الدكتور (طه جابر العلواني).

وكما يطالب القرآن بالنَفرة للجهاد يطالب بمثلها للاجتهاد، ومن اللافت للنظر حقًا أن يستخدم القرآن لفظ «النَفرة»: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة: 122)، ذلك

أن مصطلح «النَفرة» غالبًا ما يستخدم للاستجابة لداعي الجهاد، وكأن «النَفرة» المطلوبة هنا، وفق منطوق الآية الكريمة لاستدراك المعارف، والفقه بالتخصصات المتنوعة، والاجتهاد فيها هو جهاد من الجهاد، بل لعله ميدان الجهاد الذي يصنع النصر في المواقع جميعًا؛ لأن المعرفة هي (القوة المرنة) التي تحرك سائر القوى وتوجهها.

وهناك من يصف المسلمين بأنهم أمة تأنف من التقليد وتعجز عن الاجتهاد، كما هو حاصل في مراحلها المتأخرة ... ويعد هذا العجز إحدى أسرار محنتهم الحالية في إحدى تجلياتها، وقد آن الأوان للخروج من هذا المأزق، أما الأنفة من التقليد فهي عزة لا يجوز التنازل عنها، وأما العجز عن الاجتهاد فهو ذِلة وضعة، والملاحظ أن أمام المسلمين اليوم عوالم تحتاج إلى أن يبذلوا فيها جهدهم، من خلال تقديم اجتهادات تواكب العصر الذي يعيشون فيه، فعالم الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية... هي عوالم الاجتهاد بالنسبة للمسلمين ولغيرهم، ولا أحد يحمل فيها الحقيقة المطلقة، أو لديه القول الفصل، ولغة الاجتهاد لمن يعرفها هي القدرة على الترجيح، وفي بعض الأحيان قد تميل الكفة بقشة بسيطة لا يراها إلا أصحاب البصيرة الثاقبة.

والتدين على مستوى الفرد والجماعة هو جهاد لإنجاز الدين، فيه معاناة يكابدها الإنسان عبر واقعه الذاتي والموضوعي، وفي ذلك الجهاد يصوغ من تصرفاته الفردية والاجتماعية والكونية، في مكابدته لواقع النفس

والمجتمع والكون أفعالًا جزئية غير منحصرة يحقق بها كليات الدين، ويقترب بها قدمًا من المثال الكامل، على قدر ما يصيب في اجتهاده، وما يخلص في جهاده، في حركة لا تستنفد أغراضها بتحقيق الكمال، ولكن يتجدد زخمها ويشتد بما يُحسن الإنسان من أساليب التدين في تزكية النفس وتعمير الأرض، وفق تعبير الدكتور (عبد المجيد النجار).

إذًا فنحن محتاجون إلى خطوتين هامتين في بداية الأمر:

الخطوة الأولى: أن نُخرِج الاجتهاد من الانحصار في الدائرة الفقهيَّة إلى العموم والشمول في دوائر الحياة علمًا وعملًا، ومعرفةً وسلوكًا، وتحويله إلى حالة عامَّة في الأمَّة، في سائر جوانب حياتها.

والخطوة الثانية: أن نتخلص من إسار التقليد؛ لأنَّه أخطر أعداء الاجتهاد، فالأصوليُّون كافَّة يعرّفون التقليد بأنَّه: «قبول قول الغير بلا حجة»، وهذا أمر يرفضه الإسلام، ويأباه القرآن الكريم، الذي ينادي باستمرار بطلب الحجة والبرهان، (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

والحنين إلى الماضي لأنه ماضي طفولة متأخرة، وبالمثل الحنين والتعلق بالجديد لأنه جديد مراهقة غير مضمونة النتائج.

المطلوب هو صواب القديم أو الجديد ونفعه لا التعلق بأشخاصه وتاريخه (قديم أو جديد)، نحن مطالبون أن نجتهد لعصرنا كما اجتهد من سبقونا لعصرهم، ويحكمنا جميعا مرجعيات ثابتة، وقد يكون اجتهادهم في عصرهم مناسبا لظروف زمانهم ولكنه ليس مناسبا لظروف زماننا،

فنأخذ عنهم (المنهج) ونغير (الوسيلة) التي تناسب عصرنا، المطلوب في النهاية أن نكون على مستوى ديننا من جانب وعلى مستوى عصرنا من جانب آخر، وعندما نعجز أن نكون في مستوى ديننا وعصرنا نكون قد أسأنا إلى ديننا وعصرنا في آن واحد.

وليس بالضرورة أن يكون اجتهاد السابق أكثر نضجا من اجتهاد المتأخر، وليس بالضرورة أيضا أن يكون اجتهاد السابق أكثر دقة من اجتهاد اللاحق، الأمر فيه سعة، فقد يكون الاجتهاد أو الرأي الصادر عن السابق أكثر دقة وأليق بمقام النصوص المعصومة أو غيرها، وقد يكون الاجتهاد أو الرأي الصادر عن المتأخر أكثر نضجا وأكثر دلالة وأقرب إلى روح النص، نظرا لكونه قد استفاد من فضاءات كثيرة من خلال من سبقوه، وفي أحيان أخرى قد يكون اجتهاد الأولين والآخرين وآراؤهم في نفس المستوى ولا يمكن الجزم لأحدهما بالتفوق والصحة المطلقة، وربما وفق طرف ثالث للجمع بينهما والخروج باجتهاد ورأي ثالث أو رابع أو خامس.... في هذه المسألة أو تلك، ومدار الأمر في كل هذا أن ينظر إلى المسألة أنها قائمة على الاجتهاد والقدرات العقلية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء للأولين والآخرين على حد سواء، وليست الصوابية والدقة محصورة على زمن أو جيل دون غيره، والأول قد بذل جهده وأخرج للعالم جواهر وترك المنجم للمتأخر ليأخذ منه حاجته.

وحين تدور الفكرة في فلك شخصي أو مذهبي، فإنها تفقد جزءا

مـن مصداقيتهـا، وجـزءا مـن جاذبيتهـا، فالمفكـر الحـر، لا يضـع في مسـيرته الاجتهاديـة اعتبـارات غـير موضوعيـة، ولا يخفـي جـزءا مـن الحقيقـة مـن أجـل فـلان أو عـلان، كـما لا يؤكـد عـلى مسـألة، ويبالـغ في تقريرهـا لخدمـة الاتجـاه الفـلاني أو الجماعـة الفلانيـة، كـما أن الوثـوق التـام بأفكارنـا لا يختلـف في نهايـة الأمـر عـن الرفـض التـام لمـا لـدى غيرنـا، فكلاهمـا غـير صحيـح، ويتنـافى مـع جوهـر أدبيـات الاجتهـاد، وفـق تعبـير الدكتـور (عبـد الكريـم بـكار).

إن الوثوقيـة الزائـدة بمعطيـات الاجتهـاد تشـبه الشـكوك في مسـائل العقائـد، حيـث تتحـول الظنيـات هنـاك إلى عقائـد، وتتحـول العقائـد هنـا مـن ثوابـت لتأطـير الخـلاف إلى مسـائل مختلـف فيهـا، فالمتقـدم عـلى الصـف كالمتأخـر عنـه، حيـث يـؤدي كل منهـما إلى اعوجاجـه، وقـد فـرّق أئمـة الفقـه عـلى نحـو قاطـع بـين العقائـد التـي لا يصلـح لهـا سـوى الوثـوق التـام، وبـين معطيـات الاجتهـاد التـي لا يلائمهـا سـوى الترجيـح والظـن والاحتـمال.

والعجيـب أنـه إذا ذَكَـرَ الكاتـب في بحثـه أو كتابـه شـيئا هـو موضـع اتفـاق أو هـو مشـهور قلنـا: إنـه لم يـأت بجديـد، ولم يسـتفد ممـا ذكـره شـيئا ... وإذا اجتهـد وجـاء بـشيء غـير معـروف مـن قبـل فإننـا ننكـر عليـه حـق الاجتهـاد، ونتحفـز لالتقـاط هفواتـه والتشـنيع عليـه.

إن أوضـاع التخلـف تدفـع النـاس إلى تماثـل فكـري عجيـب لكنـه سيء جـدا، عـلى حـين أن أحـوال النهـوض تحفـز العقـول عـلى التنـوع في الطـرح، والتعدديـة في الرؤيـة والاختـلاف في التحليـل، وهـذا شـأن العقـل البـشري حين

يـمارس الاجتهـاد، وحـين تصبـح أخطـاء المـرء اجتهاديـة، فهـذا مـن أعظـم البراهـين والدلائـل عـلى سـموه وارتقائـه واتزانـه، وهـذا مـا يريـده منـا الشـارع الحكيـم.

إن دائـرة الاجتهـاد في الإسـلام تضيـق حـين تكثـر النصـوص، وتتسـع حـين تقـل النصـوص، كـما أشـار إلى ذلـك الدكتـور (عبـد الكريـم بـكار)، وهـذا في الحقيقـة مـن عظمـة هـذا الديـن وكمالـه، والشريعـة في بعـض الأحيـان قـد تصمـت صمتًـا تامًـا تجـاه بعـض الأمـور المتغـيرة، فـلا تسـن أي تشريـع، وذلـك مـن أجـل إتاحـة الفرصـة الكاملـة لعقولنـا كـي تجتهـد وتُبـدع وتبتكـر.

وكـما أنـه لا يمكـن لمرحلـة سـابقة أن تتسـع لمرحلـة لاحقـة، فـإن التقدم الحضـاري والاتسـاع العمـراني الـذي شـهده عـصر التابعـين، جعـل مـا ورثـوه مـن فتـاوى واجتهـادات ونظـم مـن عـصر الصحابـة رضـوان الله عليهـم غـير قـادر عـلى توفـير الغطـاء الثقـافي لعصرهـم، فـما كان منهـم إلا أن اجتهـدوا واقتبسـوا مـن الأمـم الأخـرى، وهـذا مـا فعلـه المسـلمون في كل العصـور التاليـة، وهـذا مـا علينـا فعلـه اليـوم عـلى العديـد مـن الصعـد.

إن العـالِم المسـلم المتخصـص والمتمكـن مـن علـوم الشريعـة مطالـب بالاجتهـاد في شـؤون زمانـه كـما كان أسـلافه مـن أهـل العلـم مطالبـين بالاجتهـاد في شـؤون زمانهـم، لكـن الانحطـاط الحضـاري يفسـد كل شيء، ومـن الواضـح في هـذا السـياق أن حركـة العقـل هـي انعـكاس لحركـة اليـد، فحـين تكـون الحيـاة العامـة مـوّارة بالتغـير والتطـور، فإنهـا تحـث العقـل عـلى

الاجتهاد وتوليد الأحكام التي توفر الغطاء الفقهي وتوفر الفتوى لمعالجة الأوضاع الجديدة.

وحين تخبو جذوة الاجتهاد لدى أمة من الأمم، ويهيمن عليها الجمود، فإنها تنظر إلى محاولات السابقين من رجالاتها نظرة تقديس عوضًا عن البحث عن طرائق جديدة تحقق عين المقاصد والمصالح التي سعى أسلافهم إلى تحقيقها، وهذا هو الذي حدث للمسلمين مع الأسف الشديد!

والفارق بين التعصب والالتزام، وفق تأكيد الدكتور بكار، هو أن الأخير انحياز إلى قطعيات لا تقبل الجدل، أو مبادئ عامة وقع الإجماع عليها، وبصورة عامة فإن الالتزام يكون بما علا على دوائر الاجتهاد، كما يكون التعصب - عادة - فيما يقبل النظر والتأمل. وكلما كان عدد الجزئيات التي عزم المتعصب الدفاع عنها كثيرا كانت مخاطرته أكبر، وكان تعصبه أشد.

إن الذين تعودوا على الآخرين ليفكروا عنهم غير قادرين على الدخول في حوار جاد، وإذا دخلوه فإنهم غير قادرين على الاستمرار فيه، لأن الحوار متصل بالاجتهاد، والقدرة على التوليد والتجدد، وأصحاب الكسل الذهني والتقليد المطلق غير قادرين على شيء من ذلك.

وعندما بدأنا الحديث في هذا الدرب عن الجهاد والاجتهاد، كانت البداية مع الجهاد بمفهومه الشامل، ثم كان الحديث عن الاجتهاد بمدلوله

الواضح، لنعود مرة ثالثة في نهاية هذا الدرب للحديث عن الجهاد، وبهذا فقد جعلنا الاجتهاد في القلب من هذا الدرب، كونه هو الذي يمنح الجهاد ديناميته وحيويته، حيث إنه لا جهاد من دون اجتهاد يوجهه ويقود مسيرته، ولا اجتهاد بلا جهاد ينقله من حيّز التنظير إلى واقع الفعل، وهذا بدوره يُحدِث نوعا من التناغم بين الجهاد والاجتهاد، فيؤدي أحدهما إلى الآخر، ويعود أحدهما على الآخر بالترشيد والتسديد، في عملية دائرية صاعدة لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد.

فالأمة محتاجة إلى بلورة مبادئها وقيمها في إجراءات يومية تجعل حضور هذه القيم والمبادئ ملموسا، وهذه الإجراءات والأشكال تتم بلورتها من خلال عملية اجتهادية مستمرة، تستهدف إيجاد وظائف محددة للمثل العليا، وإيجاد المحفزات التي تنشط تلك الوظائف، إذا ما اعتراها الفتور أو انخفضت درجة فاعليتها لسبب من الأسباب، واستقلال الوحي عن التراث يمنحنا جرأة نادرة في مقاومة استحالة التراث واجتهادات البشر إلى قيود ومحددات، تجعل مستقبلنا ومتطلباته الفكرية والثقافية مرهونة لدى اجتهادات ورؤى ماضية.

إن مشكلة (ادعاء المعرفة) من أكبر المشكلات التي يواجهها الناس، وهي شيء غير (الاجتهاد) في المنطلق والنتائج، فالمجتهد عن أهلية يتردد بين الأجر والأجرين، والمدَّعِي مسؤول عن نتائج ادعائه، وليس لذلك من حل إلا ارتقاء الوعي العام الذي يحاصر المدّعين في أضيق الزوايا،

ويلجئهم إلى أضيق الطرق، كما عبّر عن ذلك الدكتور (عبد الكريم بكار).

إن علينا أن نفرِّق بين خسائر نتجت من جراء عقبات الطريق وتكاليفه الطبيعية، أو نتجت جراء اجتهاد مؤصّل قام به من يسوغ له الاجتهاد، وبين خسائر حدثت نتيجة مغامرات غير محسوبة، أو نتيجة ضعف في المعلومات اللازمة، أو نتيجة اجتهاد لا يستند إلى أية حجة من شرع أو علم أو خبرة، أو من جراء فتاوى من أشخاص هم أبعد شيء عن المجال الذي اجتهدوا فيه. «وكم من مستشرف لصنعة الفكر الاجتهادي بدون كفاية تطاول فشجه السقف». كما يقول الشيخ (محمد الراشد).

إن التفكير في مستوياته العليا اجتهاد، ولما أذن الله تعالى لأهل العلم بالاجتهاد أذن لهم بالاختلاف، ومن شأن الجهل ترسيخ التقليد، وهذا بدوره يولّد التشابه، ومن شأن العلم التحفيز على الاجتهاد، وهذا بدوره يولد التمايز والاختلاف.

ولأن عقل الإنسان لا يمكنه أن يحيط بكل شيء، وأن محاولة المعرفة الكاملة، والتحكم الكامل، محاولة شيطانية مستحيلة، مقضي عليها بالإخفاق، إضافة إلى كون الواقع الإنساني مركب وثري، ولا نهاية لهذا التركيب وهذا الثراء، وهذا بدوره سيجعل مفهوم الاجتهاد يحل محل هذه الإحاطة المطلقة والمعرفة الكاملة، كونه المؤهل للمقاربات الأصيلة التي تمنع وهم الإحاطة المطلقة والمعرفة الكاملة - التي يدعيها أصحابها-

مـن التمـدد عـلى حسـاب الاجتهـاد.

والحـق الصريـح شيء يصعـب الوصـول إليـه دائـما، وهـو كثـيرا مـا يكـون موزعـا بـين المجتهديـن، والفـرد الحقيقـي، وفـق تعبـير المفكـر (زيجمونـت باومـان)، هـو الـذي لا يلـوم أحـدا عـلى مـا يعـاني مـن بـؤس وشـقاء، ولا يبحـث عـن أسـباب فشـله إلا في كسـله وبلادتـه، ولا يبحـث عـن حـل إلا في مواصلـة الجـد والاجتهـاد، الـذي يخرجـه مـن محنتـه، ويغـير قـدَره بقـدر أحـب إلى الله وأقـرب إلى مرضاتـه.

إن الموضوعيـة الاجتهاديـة، كـما يراهـا الدكتـور (عبـد الوهـاب المسـيري)، تـرى أن الإنسـان كائـن مركّـب، وأن العـالَم كيـان مركّـب، وأن العلاقـة بـين الواقـع والعقـل الإنسـاني علاقـة مركبـة وليسـت بسـيطة، ولـذا فالمجتهـد لا يلهـث وراء التفسـير السريـع، ولا يقنـع بالسـطح والظاهـر ومـا هو قائـم، ولا يقبـل الصيـغ الجاهـزة والقوالـب الإدراكيـة الاختزاليـة، ويرفـض التعميـم الكاسـح، ويسـعى جاهـدا ومجتهـدا إلى قبـول التعميـم المبني عـلى إدراك لتركيبيـة الواقـع، ولهـذا فقـد اسـتبدل الدكتـور المسـيري المقولـة المشـهورة: «لا اجتهـاد مـع النـص». اسـتبدلها بمقولـة: «لا اجتهـاد مـع النـص في كليتـه».

ويمكننـا أن نفهـم مـن اسـتبدال الدكتـور المسـيري مقولـة لا اجتهـاد مع النـص بمقولتـه الأخـرى، أنـه يقصـد أنـه لا اجتهـاد مـع النـص في حرفيتـه، بـل في مجموعـه، أي أن يكـون المجتهـد (في النـص القـرآني مثـلا)، دارسـا للنـص القـرآني في مجموعـه وترابطـه وتركيبيتـه، أي أن المجتهـد في هـذا المجـال

يصدر عن الرؤية القرآنية الكلية، وليس عن مجرد آية هنا وآية هناك، يقوم صاحب الفتوى أو صاحب الاجتهاد باختيارها متجاهلا النصوص الأخرى.

والإنسان في التصور الإسلامي ذو نفس وروح وعقل، وقد سوى الله سبحانه النفس الإنسانية فألهمها فجورها وتقواها، وطلب من الإنسان أن يزكيها ليفلح، وحكم بالخيبة على من يدسيها، وهكذا فإن هناك صراعًا يجرى على مستوى النفس الإنسانية بين الخير والشر، والتقوى والإثم، والحلال والحرام، والحق والباطل، وهو صراع مرتبط بالقيم، ومرجع القيم في التصور الإسلامي هو الوحي الإلهي الذي أنزله الله على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، والإنسان مدعو إزاء هذا الصراع إلى الارتقاء بنفسه (الأمارة بالسوء) في مدارج السالكين لتصبح (لوامة)، إذا أخلَّ صاحبها بالقيم، ولتصل إلى منزلة (النفس المطمئنة) بالمجاهدة والنهى عن الهوى، وقد ورد في الأثر وصف جهاد النفس بأنه (جهاد أكبر)، وهنا يبرز أو ل معنى من معاني الجهاد، وهذا المعنى يستهدف تحقيق السلام في النفس الإنسانية بحيث تصبح (راضية مرضية) من خلال تحقيق التوازن بين الأشواق والضرورات، والإسلام كما أوضح (سيد قطب) في كتابه (السلام العالمي والإسلام) يبدأ ببناء السلام في العالم بتحقيق سلام النفس في الفرد، ومن ثم سلام الأسرة، فسلام المجتمع، وصولًا إلى السلام العالمي.

وقد اقتضت حكمة الله أن الإنسان لا يمكنه أن يحقق وجوده إلا

ببذل الجهد، ذلك لأن الجهد هو المحضن الذي ينمو فيه الإيمان وينضج، فكما أن العضلات في جسم الإنسان لا تنمو إلا بالرياضة، عن طريق القوة والمقاومة، كذلك الإيمان لا يتم إلا بهذا العناء، وذلك هو مضمون الجهاد، (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين). (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)، هذا الجهد يبذله الفرد لمقاومة الفتن التي تواجه النفس الإنسانية ما دام فيه نَفَس يتردد. (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم).

ويتسع مفهوم (الجهاد) ويمتد إلى كل المستويات الفكرية والنفسية والجسدية لكي يغطي تطلعات الإنسان في الكون تغطية دقيقة كاملة ومسؤولة، وجهاد النفس لون من أشق ألوان الجهاد، وفق تعبير الدكتور (علي مدكور)، لأنه جهاد ضد النفس الأمارة بالسوء، والهوى الغلاب، والعادات السيئة، والثقافات المنحرفة، والمواريث الساقطة، والتقاليد الهابطة، والعادات السيئة، والثقافات المنحرفة الوافدة، والصبر على الفترات التي يعلو فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر، والصبر على طول الطريق وبعد الشقة، وكثرة العقبات في طريق محفوف بالمكاره.

ويحتل مفهوم (مجاهدة النفس) مكانًا محوريًّا في الحياة الداخلية للإنسان المسلم، فالنفس (المتمثلة في تيار الوعي الإنساني) تتنازعها قوتان: (الدوافع) المادية البدنية الأرضية التي تلح على الإشباع المباشر، وتنزع إلى الظلم والتجاوز في ذلك، و(النوازع) الروحية التي تتوق إلى القرب من

خالقها وإرضاء بارئها الذي تستشعر حبه، وتشفق من غضبه وعقابه، والتي ترتفع بالإنسان إلى آفاق تضمحل معها قيمة إشباع الحاجات الدنيا إلى حد كبير ... آفاق تصل إلى حد استعذاب الاستشهاد في سبيل الله (رغم أنه يعني زوال النفس الواعية المكونة من البدن والروح)، كما يعني فناء البدن، على أساس أن هذا يعني صعود الروح الباقية إلى حياة الخلود في النعيم والرضوان من رب العالمين.

وحينما أمر الله بجهاد اللسان، وصف النوع الذي يأمر به بوصفين في كتابه لم يصف بهما جهاد السنان مع عظمته وفضله وجلالة قدره:

الأول: أنه جهاد كبير، {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} (الفرقان: 52).

الثاني: أنه حق الجهاد {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...} (الحج: 78).

الشيخ (عبد العزيز الطريفي).

وليعلم الإنسان أن جهاده في سبيل التزكي والتطهر قد يبدو ضئيلا من حيث أثره في تزكية وتطهير الآخرين من حوله، إلا أن هذا التزكي عظيم الخطر جدا من حيث أثره في الإنسان، فهو الذي يرفع من قدره عند نفسه، ويرفع من قدر الخير عنده، وكل خير يعمله، وكل شر يجتنبه، مهما يكن صغيرا، هو جزء من جهاد الجنس الإنساني كافة، وبه يتحقق أمل الإنسانية فيه، وأملك أيها الإنسان في الإنسانية من حولك يبدأ بتحقيقك لأملها فيك.

ومفهوم الجهاد في الإسلام مفهوم عبقري كسائر مفاهيم القرآن، يمتد ليغطي مساحة كبيرة جدا من المعاني والمحددات والوسائل، والأدوات والمراتب والمستويات، حتى ليكاد يزاحم الإيمان في اتساعه وشموله، وإذا كان الإيمان بضع وسبعون شعبة كما في الحديث الشريف، فإن شُعب الجهاد تكاد لا تنزل عن ذلك كثيرا، فهو يتسع قرآنيا، ويتسع حتى يغمر السلوك الإنساني كله، للأسرة والمجتمع والدولة والفرد، ويضيق في بعض النصوص والمواقف حتى يصير مرادفا للقتال، ولذلك كان الجهاد فريضة محكمة، وسنة دائمة إلى يوم القيامة، لا تخلو من جملة من أنواعه ومراتبه تمارسها مهما كانت الظروف ومهما تغيرت الأحوال، وهو لا يتوقف على السِلم ولا على الحرب، إذ هو سارٍ وجارٍ في سائر الأحوال.

إن الجهاد مفهوم متصل تمام الاتصال بمقاصد الشرع العليا، أو القيم الحاكمة التوحيد، العمران، التزكية، فكل قصد، أو نية، أو فكر، أو اعتقاد، أو عمل، أو قول، أو تخطيط، يصدر عن أهله يستهدف تعزيز هذه القيم الحاكمة أو المقاصد العليا فهو جهاد مرغوب فيه، ومطالب به من كل مسلم قادر عليه، وفق تعبير أ.د. (طه جابر العلواني).

إن الجهاد في الإسلام فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة، لأنه مُستطاع لكل المكلفين وفق القدرات التي امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفي أي ميدان يستطيع المكلّف أن يبذل جهده فيه بسائر ميادين العبادات والمعاملات؛ في حين كان القتال الذي هو شعبة من شعب

الجهاد مشروطًا بشروط، وله ميادين محددة، ضبطها القرآن الكريم في الآيات التي تحدثت عن القتال.

وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد؛ وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في عمران الأرض نهوضًا بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان هو جهاد؛ بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد -الطبيعة- هو جهاد؛ وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولي الأرحام هو جهاد، كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه هي قمة من قمم الجهاد الذي فرضه الإسلام؛ والكلمة الصادقة جهاد.

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام -كل الثغور- هي جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله، ذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام - وفيه التجرد من الدنيا وقوّتها، بل وزينتها- والتعايش السلمي حتى مع الهوام، وكل أنواع الأحياء والنباتات... جعلت السنة النبوية هذا الحج ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامي، كما عبّر عن ذلك الدكتور (محمد عمارة).

وللجهاد ومعانيه دلالات منهجية، فالجهاد كمفهوم شامل يستغرق كل حركة حضارية ملتزمة ومهتدية من قبل الإنسان المؤمن أو الجماعة أو الأمة المهدية بمنهج الله، وقد شرع الله الجهاد لحماية الأمة من خارجها، كما يؤكد على ذلك الشيخ (عبد العزيز الطريفي)، وشرع الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر لحمايتها من داخلها، وكلا الأمرين جهاد مطلوب، ولا تقوم أمة إلا بهما وإن قامت بدونهما ما دامت.

والجهاد هو إحدى وسائل تربية الأمة، والارتقاء بها، وضبط مسارها، وليس أمرًا منفلتًا، ولا حركة قوة عمياء باطشة لا تميز، وإنما للجهاد آداب وأحكام وأهداف لا بد من الالتزام بها، وهو عبادة من أعلى العبادات، فهو رأس سنام الإسلام؛ لذلك فوقوع بعض الجنوح أو الخطأ في ميادين المعركة، أو حصول حالات استثنائية، أو التعسف في استعمال بعض الحقوق والممارسات وتطبيق الأحكام، لا تغير من حقيقة الجهاد شيئًا، ولا تقود إلى العمل على إلغاء الجهاد، وإنما إلى تصويب ممارساته؛ لأن الغاية لا تبرر الوسيلة في شريعة الإسلام.

وفي ضوء ذلك كله يمكن القول (الأستاذ عمر عبيد حسنة): إن الجهاد فعل حضاري إنساني وليس عملًا إرهابيًا عنيفًا؛ وإن امتطاء بعض أصحاب الفقه القليل والرؤى القاصرة والمتحمسين لخيول الجهاد وإعلان أنفسهم أمراء للجهاد، يمارسون تكفير المسلمين، بسبب بعض الأخطاء والخطايا، ويسقطون عليهم أحكام آيات الكفار والمنافقين، ويعبثون بالأرواح والأموال والأمن، ويروِّعون المجتمعات، ويقتلون بدون تمييز، ويستبيحون دماء الأولاد والنساء وما إلى ذلك، ويُسقطون الأحكام الشرعية على المجتمعات، ووصمها بأنها دار حرب أو دار جاهلية، وما إلى ذلك، ليسوغوا فعلتهم، فهذا تشويه لحقيقة الجهاد، وعبث بأحكامه

ومفهومه وآدابه ومقاصده، قد يكون لأعداء الإسلام نصيب في صناعة ذلك، حتى ولو سقط في فخاخهم بعض بسطاء المسلمين.

والجهاد بلا علم، يؤدي إلى الكارثة... والعقيدة بلا علم، تقود إلى التحلل والشرك والخرافة... والعبادة بلا علم، توصل إلى الشرك والوثنية والبدع واستباحة المنكرات... وهكذا فالعلم والتعليم والتربية هو مدخل ذلك كله، ووسيلة ذلك كله، لذلك جعل العلم والتعليم عبادةً بحد ذاته ومدخلًا لسائر العبادات.

ومفهوم الجهاد اليوم، بدأ يُهمّش وينتقص ويحاصر ويعبث به بوضع المقدمات الخاطئة، التي أملتها ردود الفعل، وحالات الهزيمة، والانكسار، للوصول بالأمة إلى النتائج الخاطئة، باسم التكييف الفقهي لعملية الجهاد. يقول الشاعر:

يُقضى على المرء في أيّام محنته حتَّى يرى حَسنًا ما ليس بالحَسَنِ.

والمجاهدة إنما تكون في الميادين جميعها؛ ومشروع النهوض هو مشروع أمة بكل فئاتها ومواقفها ومسؤولياتها؛ والجهاد بمعنى دفع العدوان وإزالة المعوقات من طريق الدعوة إلى الإسلام ونشر الحرية، جانبٌ أساس في مشروع النهوض بكل أدواته، لكن لابد لنا أن نعرف أين نضع أقدامنا، لابد من التخطيط ودراسة الجدوى ومعرفة الإمكانات الذاتية وإمكانات الخصم وخططه، والتمتع بوضوحٍ في الرؤية والهدف ونظافة الوسيلة، وكل ذلك من الجهاد، بمعناه العام، وفق تعبير الأستاذ

(عمـر حسـنة).

ومجاهـدة النفـس في منظـور الدكتور(عبـد الوهـاب المسـيري)في كتابه (الفلسـفة المادية وتفكيك الإنسـان)، هـي تلـك المجاهـدة التـي تجعـل الإنسـان يكتشـف مـا بداخلـه مـن أسرار فيـدرك أنـه ليـس بـمادة ميتـة صـماء، وأنـه ليـس مجـرد مجموعـة مـن المصالـح الاقتصاديـة والدوافـع الغريزيـة، وأن بوسـع الإنسـان، لـو شـاء، أن يُعـرِّف مصالحـه بطريقـة لا تتعـارض بالـضرورة مـع خصوصيتـه القوميـة ومنظوماتـه القيميـة.

والمجاهـدة هـي محاربـة للنفـس الأمـارة بالسـوء، بتحميلهـا مـا يشـق عليهـا بـما هـو مطلـوب بالـشرع مـن أمـر ونهـي، وأصـل المجاهـدة، كـما قـال الإمـام القشـيري: «فطـم النفـس عـن المألوفـات، وحملهـا عـلى خـلاف هواهـا في عمـوم الأوقـات، وللنفـس صفتـان مانعتـان لهـا مـن الخـير: انهـماك في الشـهوات، وامتنـاع عـن الطاعـات، فـإذا جمحـت عنـد ركـوب الهـوى وجـب كبحهـا بلجـام التقـوى، وإذا حرنـت عنـد القيـام بالموافقـات يجـب سـوقها عـلى خـلاف الهـوى»، وذلـك كلـه يهـدف إلى «تكميـل النفـس وتزكيتهـا وتصفيتهـا لتهتـدي بأخلاقهـا». والمجاهـدة إتعـاب النفـس لإراحتهـا، وإماتتهـا لإحيائهـا، وقـد حقـق بعـض العارفـين القـول في الجهـاد، ومراتبـه، عـلى نحـو مـا يـرد موجـزًا، فيـما يلي(ابـن القيـم، زاد المعـاد في هـدي خـير العبـاد):

مراتب الجهاد: الجهاد على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: جهاد النفس، وهو أيضًا أربع مراتب:

أحدها: أن يجاهدها على تعلم الهدى.

الثانية: على العمل به بعد علمه.

الثالثة: على الدعوة إليه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله.

الرابعة: على الصبر على مشاق القيام بذلك، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه الأربع، صار من الربانيين، فإن سلف الأمة الأخيار مجمعون على أن العالم لا يكون ربانيًا، حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلّمه.

المرتبة الثانية: جهاد الشيطان، وهو مرتبتان: إحداهما، جهاده على دفع ما يُلقِي من الشبهات، والثانية جهاده على دفع ما يُلقِي من الشهوات.

فالأولى بعدة اليقين، والثانية بعدة الصبر، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} (السجدة: 24).

المرتبة الثالثة: جهاد الكفار والمنافقين، وهو أربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال والنفس.. وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

المرتبة الرابعة: جهاد أرباب الظلم، والمنكرات، والبدع، وهو ثلاث مراتب: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه.

رائحة الخبز الطازج، والملابس المغسولة، والطعام الذي نضج لتوه، والوجود المغتسل بالمطر، وتعرّق الأطفال حديثي الولادة، والكتب الجديدة، والبحر تغسله شمس الشروق ... إنها رائحة البدايات الجديدة التي تتجاوز الحواس لتحمل البشرى ... إنها رائحة الأمل.

إذا كان الإسلام يدعو الناس إلى ألا يركنوا في حياتهم إلى تشاؤم أو تفاؤل غير مبني على مؤشرات واضحة، (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور)، فمعنى ذلك أنه يدعوهم إلى حساب المستقبل حسابا علميا ليعرفوه قبل وقوعه، (ولتنظر نفس ما قدمت لغد). فالتفاؤل والتشاؤم إنما يكونان في المواقع التي لم نحسب حسابها، في هذه الحالة يكون كلٌّ من التشاؤم والتفاؤل ناتجين عن جهل الإنسان بمجرى الأحداث في حاضرها أو في مستقبلها، وفق تعبير د. (زكي نجيب محمود)، والمبالغة في حالات التفاؤل والتشاؤم توجدها حالات الانحباس الذي تفرزه حالات الصراع والأزمات السياسية طويلة الأمد، وتتمثل من خلال (تعظيم) بعض بوارق الأمل، أو من خلال (تقزيم) بعض المشكلات الكبرى، متخذة منها نافذة لاستعادة بعض الثقة بالنفس، وبعض التفاؤل بالمستقبل، لكن ذلك مع الأسف لا يكون إلا مؤقتا، كما

أن هـذه العقليـة التفاؤليـة السـاذجة تصبـح فاكهـة لمجالـس العاطلـين عـن العمل.

وفي مقابـل ذلـك، فإنـه في حالـة اليـأس والإحبـاط مـن تغيـير الواقـع، يتعـرض الفـرد إلى تغـيرات سـلبية في التفكـير والشـعور، ففـي مجـال التفكـير، تقـل أمـام العقـل الخيـارات والمحـاولات والحلـول للتغلـب عـلى العوائـق، أمـا في جانـب الشـعور والإحسـاس، فـإن الفـرد في حالـة اليـأس والإحبـاط، يغلـب عليـه التشـاؤم والشـعور بنقـص الكفـاءة والانهزاميـة، فينخفـض مسـتوى الـروح المعنويـة، وينعـدم الأمـل في المسـتقبل، وقـد يتجـه الفـرد -بنـاء عـلى ذلـك-إلى التفكـير العـدواني المنحـرف لعـلاج المشـكلات، وهـذا مـا يمكـن ملاحظتـه مـن خـلال الشـخصيات العدميـة والسـوداوية، التـي تـرى الآفـاق مسـدودة والآمـال معدومـة، فتجنـح للعنـف كطريـق إجبـاري للتغيـير.

والـذي يحتـاج إلى معالجـة وتوجيـه هـو الشـعور بالتفـاؤل وإمكانيـة تحسـن الأوضـاع، إذ إننـا لـن نكسـب مـن وراء اليـأس إلا انحسـار الـذات وخمـود النشـاط وارتبـاك الوعـي، ومـن المهـم في الظـروف الصعبـة أن تسـتخرج الإيجابيـات وخمائـر الإصـلاح والصـلاح، أمـا تعـداد السـلبيات فهـذا يسـتطيعه كل أحـد، كـما يؤكـد عـلى ذلـك د. (عبـد الكريـم بـكار)، وحـين يطل التشـاؤم علينـا مـن النافـذة يخـرج العقـل والمنطـق والـذوق السـليم مـن البـاب.

والمشـكل في التعاطـي مـع الأحـداث التـي نعايشـها عـلى أرض الواقـع، لا يتمثـل في جنـوح بعضهـم إلى التشـاؤم فحسـب، وإنـما هنـاك شـكل آخـر، هو

جنوح البعض إلى تفاؤل ليس له أي مسوِّغ، وقد ساد في الأوساط العلمية شعور بأن التفاؤل المفرط، هو أول خطوة في طريق التشاؤم والعبث، وانقطاع الرجاء.

والعقل البشري في بنيته ميال إلى التشاؤم، وهو أقدر على رؤية السلبيات منه على رؤية الإيجابيات، ولذلك فالعقل يحتاج منا إلى القيام بعملية نعيد له من خلالها قدرة التحكم المتوازنة حتى لا ينساق وراء متاهات اليأس والإحباط القاتلة.

والتشاؤم أصلا حالة نفسية مرضية ضارة على الصحة الجسمية والنفسية والعقلية، ولهذا يقول بعض علماء النفس (د. عبد العزيز فريد): «إن الإنسان يتحمل بفعل اتجاهه التشاؤمي متاعب هي أشد وقعا على نفسه وأعصابه من وقع الكوارث أو الملمات أو المآسي التي يتوقع حدوثها، ويستهلك اتجاهه التشاؤمي من الطاقات النفسية والعقلية والجسمية الشيء الكثير، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في اتجاهه الخاطئ بإعمال قوة الإرادة، ذلك أن بواعث التشاؤم هي أبعد وأعمق من أن تنالها الإرادة الواعية».

وفي حديث يرويه (الإمام أحمد) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن، والذين يتأملون هذا السلوك منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط، وهو ضد التشاؤم، الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات، وأيضا

هو غير السذاجة، التي لا يبصر صاحبها إلا الإيجابيات أو السلبيات منفصلة إحداهما عن الأخرى، أو لا يراهما معا، فالتفاؤل موقف إيجابي من جماليات الحياة وإيجابيات المحيط دون إفراط وسذاجة.

ولكي نحدث تغييرا جوهريا، فيجب علينا أن نتحاشى التفاؤل المفرط فلا نتوهم أن أي تغيير أو تعديل يكفي لإحداث التغيير الشامل، كما نتحاشى كذلك التشاؤم المفرط فنعتقد بأن أي تغيير أو تعديل نقوم به لا يحرك ساكنا في الأحداث إذا خيم عليها الجمود.

لقد سئل أحدهم: هل أنت متشائم؟ فأجاب مبتسما: لا أملك أصلا مزيّة التشاؤم، فمن يفقد الأمل يمكنه أن يترجّل ويعطي ظهره لكل شيء ويستريح، وأنا ليس بوسعي أن أفعل هذا أبدا.

لا توجد لحظة من التاريخ يغيب عنها الحق تماما، ولا توجد لحظة تاريخية يغيب فيها الباطل تماما، و لم تأت لحظة تاريخية كان فيها الحق مطلقا أو الباطل مطلقا، بل هما يتصارعان ويتدافعان باستمرار.

يقول الشيخ الشعراوي عند تفسيره قوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} (الإسراء: 81)، إن رأيت باطلا لا ينزهق فاعلم أن هناك حقا لم يكتمل.

لا توجد لحظة سوداوية دائمة البقاء، بل توجد شقوق في جدار كل لحظة، والتركيز على الشقوق يجعلك تفكر في توسيعها لتنفذ منها، ولكن التركيز على الجدار المصمت بكامله يجعلك تيأس وتترك التفكير

في الخــلاص.

الصـبر هـو مطيّـة الإنسـان للسـير عـبر الزمـن، وهـو مطيّـة إن ركبتهـا خرجـت مـن العـسر إلى اليـسر.

(الصـبر الاسـتراتيجي)، كـما سـماه الأسـتاذ (وضـاح خنفـر)، هـو ألا تـرى الأمـور بـضرورات اللحظـة الراهنـة، ولكـن أن تراهـا في إطارهـا العـام منـذ خلـق الله الأرض ومـن عليهـا وإلى أن تـؤول إليـه، وأنـك لسـت الفاعـل الوحيـد، وإنـما فاعـل فيهـا.

اليـأس إدراك أن الحيـاة قـد توقفـت، ولا يصـل إلى اليـأس إلا مـن انسـدت لديـه المعرفـة الإسـلامية الصحيحـة، (إنـه لا ييـأس مـن روح الله إلا القـوم الكافـرون)، ومـن علامـات اليقـين الثبـات، ومـن علامـات الثبـات الأمـن عنـد الـروع، كـما يقـول (ابـن عطـاء الله السـكندري)، والإنسـان في حياتـه الدنيـا بـين كـدح وكبـد.

إن معنـى انسـداد الآفـاق لـدى الإنسـان، أن قراءتـه للواقـع قـد تضررت وقـد أصابهـا الخلـل، وهـو ينتظـر المهـدي المنتظـر ليحـل لـه المشـكلة.

إن اليـأس سرطـان الحيـاة، والخـوف وقـود الـتردد، وعندمـا يحـاول الإنسـان معرفـة كل التفاصيـل الدقيقـة قبـل القيـام بعمـل جديـد فإنـه يكـرس الـتردد، وعندمـا يعـلي مـن قيمـة تلـك التفاصيـل فإنـه يـمارس الخـوف، ولذلك فـإن المـتردد لا يثـق بعقلـه، والخائـف لا يثـق بقلبـه، ولـو كانـت مخاوفنـا حقيقية فلـماذا لا يعانيهـا غيرنـا بالدرجـة نفسـها التـي نعانيهـا نحـن؟ وفـق تسـاؤل

الأستاذ (ياسر حارب).

والظلام الذي يعانيه اليائس يعيش بين الخوف والتردد، وعندها يعشش اليأس الذي يطحن كل فرصة للنجاح، فمخاوفنا طواحين من صنع أنفسنا وأفكارنا المليئة بالسلبية، واليائس هو الشخص الذي يطفئ المصباح ثم يشكو للآخرين إضاعته للطريق، لا تطفئ المصباح حتى وإن كان زيته على وشك النفاد، فمعظم الاستدلالات تأتي قبل موت الأمل بلحظات، قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} (الأنعام: 34)، وقال ـ جل في علاه ـ: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} (الشورى: 28).

ألا ما أجمل أن يكون المرء مثل السماء، ينظر إليه الناس كلما فقدوا الأمل، إنها حالة التسامي القصوى حيث يكون الحاضر هو الزمان والمكان الوحيدان اللذان نشعر بهما، وعندما يصل أحدنا إلى تلك الحالة فإنه يسامح كل شيء مرّ في حياته لأنه كان جزءا من تكوينه وخبرته، عقباته ومشكلاته، أمراضه وخساراته، تجمعت كلها الآن وأصبحت تذكارا.

التسامح مع النفس هو أن ترى آلامك كشوكة صغيرة علقت برجلك برهة ثم نزعتها وأكملت المسير، واليائس شخص استدبر المستقبل، وأغلق كل الملفات، واستبعد كل الحلول، ووصل إلى النهايات التي ليس بعدها إلا حضور ملك الموت لأخذ الروح، أما من يبني أمله

وتفاؤله على رؤى واضحة فهو إنسان يستحث المستقبل المشرق للمجيء سريعا، لما يقوم به من إنجازات وما يقدمه من حلول، وهذا الإنسان لا يؤمن بالنهايات المغلقة بل يؤمن بأن هناك مسارات أخرى يمكن السير فيها، و أنّ هناك حلولا يمكن البحث عنها، وهناك طرقا أخرى يمكن اكتشافها، إنه إنسان منشرح الصدر، منفتح العقل، عملي التصرف، والأمل والتفاؤل المبني على قواعد الأسباب والمسببات، والمُستنتَج من دلائل المؤشرات، والقائم على توقع النتيجة القادمة من صناعة المقدمات، هو التفاؤل الذي يعتمد عليه، وفق تعبير الأستاذ (الخضر بن حليس)، وما سوى ذلك فحَقنٌ بالمسكنات، ودعوة لانتظار المفاجآت، فالله لا يمنح العصفور طعاما للعش، ولكن الطيور (تغدوا خماصا وتعود بطانا)، ومن المؤكد أن علاقة المؤمن بالله تعطيه الأمل، ولكنها أيضا وبشكلٍ موازٍ ترشده إلى العمل، وتنظّم له فضاءه الفكري حتى يحسن العمل، وقوانين الله تعمل متحدة.

ويمكن القول بثقة مع الأستاذ الدكتور (فؤاد البنا): إن الأمل كُحلٌ يُجلي العين ويحدّ البصر، ويقوي النظر، ويساعد على الرؤية البعيدة، وبدونه يفقد النظر حدّته، ولا يرى المرء إلا موطئ قدميه، ويصاب النظر بالغبش والعَمَش، وتعْتَلّ الرؤية وتَخْتلّ البصيرة، وحين تتردى الحالة النفسية للإنسان يشعر وكأنه قد توحّل وتلطخ بطباع سيئة، وقد تدمرت نفسيته، وكأنه جسم هش، وقد تحطم، وقد فقد الأمل في

أي خيار آخر، يغير ما هو عليه، ليس لأنه زالت منه الصفات الحميدة والقدرات الفاعلة، وإنما لأن أفكاره اضطربت وداخلها التشويش، لدرجة احتجبت فيه هذه الصفات عن أنظاره، وحالت دونه ودون بذل الجهد والطاقات المتوفرة لديه، وقد تبدو عليه الثقة والانضباط ولكنه في قرارة نفسه وداخل ذاته مهتز متأرجح بين الشك واليقين، وقد تبدو على شفتيه البسمة ولكنها بسمة ظاهرية باهتة، تنبع من الشفة وليست من القلب.

لقد لاحظت مبكرًا - كما لاحظ غيري - أن هناك فرقًا كبيرًا بين أن (نكبر) وبين أن (نشيخ)، نحن نشيخ حين نفقد الأمل، حين لا نرغب في شيء، حين نشعر بأن وجودنا زائد على حاجة البشر، وأن الستار قد أسدل ولم يعد لنا من دور نؤديه، حين نفتقد لذة الوجود، وبهذا المعنى فإن الشيخوخة (حالة)، وليست (مرحلة) من مراحل العمر، حالة قد تجد شبابًا يعيشونها.

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وأحيانًا يغلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمامنا بابًا لكي يفتح لنا بابًا آخر أفضل منه، ولكن معظم الناس يضيّعون وقتهم وجهدهم وتركيزهم وطاقتهم في النظر إلى الباب الذي أغلق، بدلًا من النظر إلى الباب الذي فتح أمامهم على مصراعيه (باب الأمل).

إن زهرة (دوّار الشمس) التي تتبع الشمس من حين شروقها وحتى غروبها، تفعل ذلك حتى في اليوم المليء بالغيوم، وهناك من يتذمّر

لأنّ للورد شوكًا، وهناك من يتفاءل لأن فوق الشوك وردا، والعجيب أن المتشائم يرى الصعوبة في كل فرصة، بينما يرى المتفائل الفرصة في كل صعوبة، والمتفائل يقول إنّ كأسي مملوءة إلى نصفها، والمتشائم يقول إن نصف كأسي فارغة.

لقد أجريت تجربة في خمسينيات القرن الماضي قام بها أحد علماء النفس (كيرت بول ريتشر المتوفي سنة 1988م)، حيث قام بتجارب نفسية على الفئران، وفي إحدى تجاربه قام بإحضار مجموعة من الفئران، ووضع كل منها في إناء زجاجي كبير، ممتلئ إلى منتصفه بالماء، وقد كان الإناء الزجاجي كبيرا إلى درجة أن الفأر لا يستطيع التعلق بمخالبه، أو القفز خارج الإناء، لقد قام (ريتشر) بحساب الوقت الذي سيستمر فيه كل فأر في السباحة ومحاولة الخروج قبل الاستسلام للغرق، طبعًا كان هناك اختلاف بين فأر وآخر، لكن في المتوسط كان الفأر يحاول لمدة 15 دقيقة تقريبًا ثم يستسلم للغرق.

قام (ريتشر) بإعادة التجربة لكن مع بعض التغيير، إذ كان عندما يرى الفأر في لحظاته الأخيرة وأنه أوشك على الاستسلام للغرق، كان يقوم بإخراجه من الإناء وتجفيفه، ثم يتركه يستريح لبعض الوقت، ثم يعيد وضعه مرة أخرى في الإناء! فعل ذلك مع كل الفئران، ثم أخذ يحسب متوسط الوقت في المرة الثانية، تذكر أن متوسط الوقت في المحاولة الأولى كان 15 دقيقة تقريبًا، والسؤال: كم تتوقع أن يكون متوسط الوقت

في المحاولة الثانية؟ والجواب: أكثر من 60 ساعة!! ساعة وليس دقيقة! هناك فأر استمر لمدة 81 ساعة تقريبًا.

تحليل التجربة: الفئران في المحاولة الأولى فقدت (الأمل) بسرعة بعد أن تأكدت أنه لا سبيل للخروج، في حين إنها في المرة الثانية، كان لديها خبرة سابقة، بأنه هناك أمل، وأنه في أي لحظة قد تمتد لها يد العون لتنقذها، لذا استمرت أكثر في انتظار تحسن الظروف.

هذه القصة تتكرر كثيرا في كتب التحليل النفسي، كدليل على أهمية «الأمل والتفاؤل» في حياة الإنسان. وبغض النظر عن التحليل المذكور لنتيجة التجربة وما يقولونه عن أهمية الأمل، فإن هناك نقطة أود إلقاء الضوء عليها، وهي مدى ارتباط القدرة الجسدية بالحالة النفسية، والأمر العجيب فعلًا، أن شخصا ما قد ينام عدد ساعات نوم كافية، ومع ذلك لا يريد الاستيقاظ للذهاب للعمل، ويشعر أنه ليس لديه طاقة لذلك! في حين أن شخصا آخر قد ينام ساعات أقل، ولكنه يقفز من سريره بسرعة، وهو في أعلى درجات نشاطه!

قد تجلس أمام شاشة التلفاز أو الهاتف لساعات، وتظن أنه ليس لديك قدرة على العمل، وليس لديك ما يكفي من الطاقة، في حين إن الحقيقة تقول إن لديك ما يكفي ويزيد، لكنك فقط ليس لديك رغبة في العمل على ما هو مطلوب منك إنجازه في تلك اللحظة، ومن الملاحظ أن معظم البشر يستطيعون بذل مزيد من الجهد عندما يجدون التشجيع،

ويتوقفون عن العمل عندما لا يجدون التقدير الكافي، هذا أمر خطير جدًا، فعقل الإنسان يفرض قيودا على قدرات جسده، أو على الأقل يوهمه بوجودها! إن الحُزن يُضعفُ القَلب، ويُوهنُ العزم، ويضر الإرَادَة، ولا شَيء أحبُ إلى الشّيطان من حُزن المؤمن ويأسه... فتفاءلوا بالخير تجدوه.

إن ما تمارسه يوميًا سوف تتقنه بكفاءة عالية، فعندما تمارس القلق يوميا؛ سوف تتقنه لدرجة أنك ستقلق لأتفه الأمور، وتصير (خبيرا في القلق)، تبحث عن أدق تفاصيل حياتك، بحثًا عن أسباب القلق لتقلق! وعندما تمارس الغضب يوميا؛ ستغضب وبدون سبب يستدعي غضبك، وهكذا في بقية عاداتك الحسنة والسيئة، مارسوا الطمأنينة لتتقنوا السكينة والراحة، مارسوا التفاؤل والأمل، مارسوا الحب والسلام، مارسوا الثقة وحسن الظن بالله في حياتكم لتنعموا بدرجة (خبراء) بالسعادة والأمان والخير وراحة البال.

لا تيأسوا أن تستردّوا مجدكم ... فلربَّ مغلوبٍ هوى ثمَّ ارتقى
مَدَّتْ له الآمالُ من أفلاكها ... خيطَ الرجاءِ إلى العلا فتسلَّقا
فتجشَّموا للمجد كلَّ عظيمةٍ ... إنّي رأيت المجدَ صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاكَ ... خيوطها سببًا إلى آماله وتعلقا

إن قيم الأشياء ترتبط بمعانيها، والحياة لا تقاس بطولها ولكن بجدواها، والقضايا العويصة، والمشكلات المتشابكة، وصعاب الطريق الطويل، تحديات يمكن أن تؤدي إلى اليأس، وتقعد عن بذل الجهود، ولكن

من الممكن أن تشحذ الهمة، وتفجر طاقات الأمل والعمل، ولنتذكر على أية حال، أن الحياة مهما بلغت من التعقيد والتشابك، فهي من منظور إنساني تناظر الإنسان في تعقده ولكن لا تتجاوز ذلك، وفي حالة اليأس والإحباط من تغيير الواقع، يتعرض الفرد إلى تغيرات سلبية في التفكير والشعور،ففي مجال التفكير، تقل أمام العقل الخيارات والمحاولات والحلول للتغلب على العوائق، أما في جانب الشعور والإحساس، فإن الفرد في حالة اليأس والإحباط، يغلب عليه التشاؤم والشعور بنقص الكفاءة والانهزامية، فينخفض مستوى الروح المعنوية لديه، وينعدم الأمل في المستقبل عنده، وقد يتجه الفرد - بناء على ذلك- إلى التفكير العدواني المنحرف لعلاج المشكلات.

ومن سنة الله في الاجتماع البشري، كما يؤكد على ذلك الدكتور (محمد عمارة)، أنه لا يأتي بالأمل سوى العمل، وأنه لا شيء يغري بالنجاح كالنجاح نفسه، وأن الإنسان يبلغ الخيرَ بعمله الحسن، ويقع في الضير بتقصيره في العمل الصالح وتشميره في عمل السيئات، والعبرة بالخواتيم، فكأنه قال: إن هذا الإملاء للكافرين (وأملي لهم إن كيدي متين) ليس عناية من الله بهم، وإنما هو جريٌ على سنته في الخلق، وهي أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله، ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافرين علة لغرورهم، وسببا لاسترسالهم في فجورهم، فيوقعهم ذلك في الإثم الذي يترتب عليه العذاب المهين،

وقد صف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه الأمل القادم فقال: (لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخولك في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف إلا الله، ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم). أورد ذلك ابن إسحاق بلا إسناد، وله شواهد من وجوه أخر.

إن اليأس خطأ منهجي، كما يقول الدكتور (عبد الكريم بكار)، لا يقع فيه المسلم الحق، وإن تنمية الذات - كالسياسة - هي دائما فن الممكن، ولذا لا ينبغي الالتفات إلى المثبطين الذين ينشرون اليأس من تغيير العادات، ويحثون الناس بطريقة خفية على الاستسلام لدواعي الشهوة والهوى ومرذول الطباع، فالإرادة الصلبة حين تتوفر تصنع العجائب، والإنسان محتاج دائما إلى منشطات الأمل وكوابح الغرور، فإن يأسه من النجاح يقوده إلى السقوط، واغتراره بما عنده يمنعه السبق.

سأل أحد الشباب الشيخ (سلمان العودة) عن أهم أحلامه، فقال له الشيخ: أن أموت وأحلامي تنبض بالحياة، وتواجه التحدي، وتنفخ روح الأمل في ضمائر البائسين واليائسين والمحبطين، وأن أزرع الحياة

بالأمـل، وأضـع بـذوره في التربـة حتـى إذا مـا باغتنـي قـبري قبـل الوصـول أكملـت البـذور مشـواري.

ورغم الشدائد يبقى الأمـل وللفأل في القلب دوما محـل
فلا الهم أضعـف مـن قوتي ولا اليأس يوما لقلبي وصل
يقيني بربي يقيـــــني العَنا ويطفئ نار الأسى والوجـل
فدع عنك حزنـك يا مبتلى وسلم لربك فيما حـــصل
إذا المرء يرضى بما قد قضى عليه الإله سعيـــــدا يظـل
سيلقى السكينة طول الحياة وفي المُرِّ يلقى مذاق العـسل.

وعندمـا نعتنـق مبـدأ أننـا ضحايـا لظروفنـا، ونستسـلم لظلمـة الحتميـة، فهـذا يعنـي فقـدان الأمـل وفقـدان الحافـز، ومـن ثـم الوقـوع في مسـتنقع الركود وتقبـل الأمـر الواقـع، والحاصـل أن مـن يغـيرون الواقـع هـم مـن يقـرؤون المشـهد قـراءة دقيقـة، ويسـتشرفون المسـتقبل وفقـا للسـنن الكونيـة وحقائـق التاريـخ، ويزرعـون الأمـل حـين يـزرع غيرهـم اليـأس، ويعملـون حـين يقعـد الآخـرون، ويواجهـون حـين يعـد غيرهـم الاستسـلام حكمـة.

إن أجمـل وأروع هندسـة في العـالم هـي أن تبنـي جـسرًا مـن الأمـل عـلى نهـر مـن اليـأس، والأمـل مهـما قيـل عنـه إلا أنـه تلـك النافـذة الصغـيرة، التـي مهـما صغـر حجمهـا، إلّا أنهـا تفتـح آفاقًـا واسـعة في الحيـاة.

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

والمتأمـل في سـورة يوسـف، التـي ذكـرت فيهـا قصـة يوسـف، وأنهـا

أحسن القصص، يجد فيها درسا بليغا، بأن من يقفون خلف آمالهم وأحلامهم، ويثقون في ربهم سيصلون إلى مبتغاهم، وسورة يوسف هي السورة الوحيدة التي بدأت (بحلم) على شكل أمل، وانتهت بتحقيق هذا الحلم، وكأن الله يخبرنا من خلال مجريات هذه القصة بأن نكون وراء أحلامنا حتى نحققها، وأن نتمسك بها حتى نظفر بها، وتعلمنا قصة يوسف أيضًا بأن نغادر مربع اليأس لأن كل الأمور لا تدوم على حال واحدة: فالمريض سيشفى، والغائب سيعود، والحزين سيفرح، والكرب سيرفع، وصاحب الهدف سيصل، وسيظل الأمل وحسن الظن بالله أجمل ما ينتظره الإنسان.

وقد أظهرت بعض البحوث والدراسات، كما أورد ذلك الدكتور (عبد الكريم بكار)، أن هناك قيمة كبرى لتوقعات الكبار لما يمكن أن يكون عليه الصغار في المستقبل، فإذا كانت تلك التوقعات (الآمال في مستقبل هؤلاء الصغار) متفائلة ومستبشرة، فإنها تدفع هؤلاء الأطفال في اتجاه التفكير والتعلم والعمل، كما أنها قد تدفعهم في اتجاه اليأس والخمول إذا كانت شحيحة ومتشائمة.

إن الصعود نحو الأفضل والأكمل هو الذي يشعر الإنسان بقيمته، ويحقق له تلك القيمة بالفعل، وعندما يشعر إنسان ما أنه توقف ولن يكسب شيئًا من أسباب النمو فإنه يرتكس في مهاوي اليأس، وقد يؤول به الأمر إلى الاستهانة بنفسه إزاء الوجود مما يؤدى به إلى الانتحار

أو الاستقالة من الحياة، فالتكليف هو طريق الصعود إلى الأفضل في مسيرة مجاهدة النفس، واليأس يمثل سجنا معنويا وعقليا كبيرا للأفراد والشعوب والمجتمعات، لا خلاص لهم من ظلمته إلا بالتحرر من أغلاله وقيوده.

إن الإنسان المحروم من صحيح الفكر ومن القدوة الحسنة، يعيش أزمة في كل حال، يعيش أزمة (الغرور) حين يفسر كل خير يصيبه بأنه استحقاق ذاتي، ومدعاة للفخر الذاتي، ويعيش أزمة (اليأس) حين يبتلى بأي مصاب لا يحتمله، والإنسان محتاج دائما إلى (منشطات الأمل) و(كوابح الغرور)، فإن يأسه من النجاح يقوده إلى السقوط، واغتراره بما عنده يمنعه السبق، وفق تعبير الشيخ (محمد الغزالي).

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق بما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت وأرست في مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غيث يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات وإن تناهت فمقرون بها الفرج القريب

العمل يتكون من نفس الحروف التي يتكون منها العلم (ع ـ م ـ ل)، مع فارق واحد هو أن حرف اللام تقدم في العلم وتأخر في العمل، ولذا قالوا بوثوق الارتباط بينهما، فلا علم بلا عمل، ولا عمل بلا علم، وقال بعض الحكماء: مثل العلم بلا عمل كمثل الشجرة بلا ثمر، والرعد والبرق بلا مطر، والقوس بلا وتر، وسئل ابن شهاب: أيهما أفضل: العلم أم العمل؟ فقال العلم لمن جَهِلَ، والعمل لمن عَلِمَ.

والعلم في الإسلام لا بد أن يرتبط بالعمل لدرجة أن الإسلام ينظر إلى الإيمان على أنه كمال قال عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشهور أنه من قول الحسن البصري: «ما وقر في القلب وصدَّقه العمل»، فالعمل إذن ثمرة المعرفة والعلم، ولا قيمة لمعرفة أو علم لا يستفاد منه بالعمل، يقول الإمام الغزالي في رسالته (أيها الولد المحب): «فلو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية، وتعلمها ولم يعمل بها، فإنها لا تفيده، وتشبه هذ العبارة عبارة أخرى تقول: ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدا لرحمة الله إلا بالعمل، العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون»، ويقول الغزالي في مكان آخر: «إن العلم والعمل مفتاح السعادة الأبدية».

والإسلام يحض على العمل، لأنه تدريب على الصبر والمثابرة، وتحفيز على تطوير العلم والمعرفة، واكتساب للمهارات الفنية، وتدريب على الأمانة والنظام، وإعمال الفكر وتقوية الجسم، وتقدم الأفراد والجماعات، وبث دماء قوية في عروق الأمة، ولولا العمل المتقن، القائم على المعرفة والخبرة والمكابدة، لتوقف سير الإنسانية إلى تحقيق طموحاتها وآمالها في الرقي والتقدم، وفق تعبير الأستاذ الدكتور (سعيد إسماعيل علي)، والإسلام لا يريد أتباعه كسالى متواكلين، ينظرون إلى العمل نظرتهم إلى الشقاء والنقمة، ويغفلون عما فيه من خير وسعادة ونعمة، بل يربيهم على العمل وتقديره على أنه واجب الإنسان في الحياة، وحق للحياة فيه، فهو يأخذ من الحياة ومن المجتمع ويرقى، فعليه أن يعطي لقاء ما أخذ، ليسهم في مسيرة التقدم الحياتية سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع.

والتربية الإسلامية تربية سلوكية: فهي لا تكتفي بالقول فقط، وإنما تطلب من الإنسان المسلم العمل ويبين القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل الصالح مرة بعد مرة، ليدلنا على هذه الحقيقة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف: 2ـ 3). وصار في حس الإنسان أنه حين(يعبد) ينقطع عن العمل، وحين (يعمل) ينقطع عن العبادة، وصارت له ساعتان منفصلتان تماما لا يربط بينهما رابط، كما أشار إلى ذلك الأستاذ

(محمد قطب): (ساعة العمل) و(ساعة العبادة)، فضلا عن ساعة ثالثة خارج العمل والعبادة جميعا، هي (ساعة اللهو أو الترويح) - بريئا أو غير بريء! - فصارت كل واحدة من هذه الدوائر (الساعات) الثلاث منفصلة عن الأخرى، (مقفلة) على ما فيها، ولم يعد الإنسان يصل إلى أي واحدة منها إلا بالخروج من الدائرتين الأخريين! وهذا فهم أعوج للعلم والعمل والترويح عن النفس، وإلا فلو صدقت النيات لكان كل ذلك عبادة وقربة إلى الله، ينال صاحبها عن القيام بها الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

وللعمل في القرآن الكريم مكانته المرموقة، وليس أدل على ذلك إلا ما ذكره القرآن من كون الإيمان جاء مقرونا بالعمل في أكثر من سبعين آية، ولم يكتف بمجرد العمل، ولكنه يطلب عمل (الصالحات)، وهي كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين، وما يصلح به الفرد والمجتمع، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا.

ويشير الإمام (محمد عبده) في تفسير المنار، عند تفسيره لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (البقرة: 269)، إلى أن الحكمة هنا هي العلم الصحيح، يكون صنعَة محكمة في النفس، حاكمة على الإرادة، توجهها إلى العمل، ومتى كان (العمل صادرا عن العلم الصحيح)، كان هو العمل الصالح المؤدي إلى السعادة، وكم من محصّل لصور كثيرة من المعلومات، خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة، لا تفيده هذه الصور التي تسمى

علما في التمييز بين الحقائق والأوهام، لأنها لم تتمكن في النفس تمكنا يجعل لها سلطانا على الإرادة، وإنما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل.

إن عناصر الربط بين العلم النافع والعمل الصالح، ليعبر عن حركة حياتية مستمرة قائمة على التواؤم والتفاعل، إن العلم بلا عمل ليس إلا عطالة حضارية، تكتفي بشقشقة الكلام لا عمق الأفعال الحضارية، وفق تعبير الدكتور (سيف الدين عبد الفتاح)، وإن العمل بلا علم يسبقه، هو حركة محفوفة بالمخاطر، وغالبا بكل عناصر الضرر الحضاري، لأن العمل وفق هذه القواعد غير مأمون يقوم على عناصر التقليد القاتل، أو العمل الأجوف، أو من يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أو هؤلاء الذين غرتهم الأماني.

والمتأمل في كتاب (الخطيب البغدادي) الذي وضع له العنوان التالي: (اقتضاء العلم العمل)، وهو بهذا العنوان يؤكد على حالة التلازم بين العلم والعمل، وهو عنوان معبر عن حالة التلازم، وقد سبق الإشارة إلى بعض كلامه في المقال السابق، وسنذكره هنا كاملا بغرض التعليق عليه، حيث يقول: «العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعدّ عالما من لم يكن بعلمه عاملا، والعلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم، ولولا العلم لم يطلب عمل». وقد صدق من قال: هتف العلم بالعمل، فإما أجابه وإلا ارتحل.

ومن خلال عبارة (الخطيب البغدادي) السابقة يمكن القول: إن الفهم الصحيح يقود إلى العمل الصحيح، وإن العمل الذي يعتمد على نوعية المعرفة قيّمٌ جدا، وإنه فقط بالعمل والتطبيق تتحول المعرفة والفهم إلى جزء من ذات الإنسان، كما يقول (ستيفن كوفي)، وإن التفكير عملية ذهنية نرسم بها خريطة العمل المؤدي إلى تحقيق هدف ما.

إن قيمة المعرفة مقترنة أبدا بقيمة العمل المترتب عليها والمؤثر في حياة العارف وحركته، وهذا توضيح وتأكيد واستخلاص لمقولة الإمام الشاطبي: (إن كل مسألة لا يترتب عليها عمل فهي لغو)، ولا شيء أسوأ من العمل القبيح إلا المبررات التي نسوقها له.

وقد أورد (أبو حيان التوحيدي) في كتابه (الامتاع والمؤانسة) قولا لابن المقفّع يحمل الكثير من كنوز الحكمة، وهو قول مكتنز المعاني، يقول فيه: «عملُ الرّجل بما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف، وتركه العمل بما يعلم أنّه صواب تهاون، والتّهاون آفة الدّين، وإقدامه على ما لا يعلم أصواب هو أم خطأ لجاج، واللّجاج آفة الرّأي»، أرأيتم كيف طوّع الكلمات حتى صارت كاملة الدسم، عملٌ بما يعلم أنه خطأ هوى، وترك عمل الصواب مع علمه به تهاون، وعمل دون علم أصواب أم خطأ آفة يقع فيها أصحاب اللجاجة، وكأن المطلوب من العامل أن يعلم صواب ما يعمل قبل عمله، فإذا تبين له من خلال العلم صواب هذا العمل فلا مجال للتهاون، وعند ذلك سيتنحى الهوى وتغيب اللجاجة.

إن الإيمان هو الرصيد القلبي للسلوك، لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها، فالتلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح، وكل عمل سلوكي لابد أن يوجد من ينبوع عقيدي، والإيمان أن تنسجم حركة الحياة مع ما في القلب وفق مراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان، فكأن العمل الصالح ينبوعه الإيمان، والقرآن يؤكد هذا في الكثير من الآيات قارنا بين الإيمان والعمل الصالح (الذين آمنوا وعملوا الصالحات).

والمسألة ليست نيات فقط، كما يؤكد على ذلك الشيخ الشعراوي في خواطره القرآنية، ولكنها (أعمال ونيات). والرسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقول في الحديث المتفق عليه: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى... ». فلابد من (عمل بعد النية) إذا توفرت القدرة على القيام بهذا العمل، وصح عزم القائم به، فالنية الصالحة التي يتخلف عنها العمل بسبب عجز ما تنفع صاحبها فقط، أما العمل الصالح المنبثق عن النية الصالحة فيعود بالنفع والخير على صاحبه وعلى الناس من حوله، وهذا هو هدف الإسلام من الجمع بين النية الصالحة والعمل الصالح.

فإذا كان في نية الإنسان أن يتصدق وتصدق فعلا، فقد انتفع الفقراء بماله، ولكن إذا لم يكن في نيته فعل الخير وفعله ليحصل على سمعة أو ليرضي بشرا انتفع الفقراء بماله أيضا، ولن ينتفع هو بثواب هذا المال،

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يقترن عمل الإنسان بنية الإخلاص لله، والعمل حركة في الحياة، والنية هي التي تعطي الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب.

إن تخلُّف جوارح الإنسان عن العمل، دليل على تخلف القلب عن اليقين، والعمل يبقى ضعيفا مهما بلغ، يرفعه الإخلاص وتضعه نية السوء، والقبول ليس بحجم العمل الظاهر، بل بقوة صدق الباطن، فالنية هي التي ترفع الإنسان وتخفضه.

ولا يزكي الإنسانَ زمانُه، وإنما تزكيه أعماله، لأنه يختار العمل ولا يختار الزمن، والتوفيق ليس في العلم، وإنما في العمل به، فإذا أراد الله بأحدٍ سوءا هيّأ له أسباب العلم وصوارف العمل، والعلم يزكي العقل، والعمل يزكي النفس، وأضعف الناس في الشدائد، عالِمٌ بلا عمل، وعامل بلا علم، وفق تعبير الدكتور (عبد العزيز الطريفي).

وما دمنا نحن وما نملك شيئا عابرا في هذه الدنيا، فإن ما يستحق الغبطة فعلا هو ما يذهب معنا، وليس ما يبقى هنا بعدنا في الدنيا، إلا إذا كان ما ذكره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديثه حين قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)، رواه الترمذي بإسناد حسن صحيح، وأهم شيء يذهب معنا – وهو شيء وحيد لا أشياء كثيرة –، هو باختصار العمل سواء أكان (صالحا أم طالحا). والحديث المروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

يوضح ذلك بجلاء، فعندما يموت الإنسان يتبعه إلى حافة قبره ثلاثة (أهله وماله وعمله)، فيرجع اثنان هما (أهله وماله)، ويبقى واحد هو (عمله)، وعمله هذا إما أن يكون صديقا له، إذا كان هذا العمل صالحا، وإما أن يكون عدوا له، إذا كان هذا العمل فاسدا.

وكل إنسان يصادف في حياته فرصة ليقوم بعمل خاص جدا، يناسب مواهبه، ويتميز به عن الآخرين، ويالها من مأساة ، وفق تعبير (ونيستون تشرشل) إذا جاءته هذه الفرصة وهو غير مستعد لها، أو غير مؤهل لهذا العمل، الذي ربما يكون أروع عمل يقوم به في حياته كلها.

إن التناغم الحاصل بين العلم والعمل تناغم لا يدرك أبعاده إلى من يعيش في كلا الدائرتين في آن واحد (دائرة العلم ودائرة العمل)، وعندها سيدرك مركزية العلم بالنسبة للعمل، كما سيدرك محورية العمل بالنسبة للعلم، وكما يقود فساد التصور إلى فساد العمل، فإن فساد العمل يؤدي إلى فساد التصور، فكثيرا ما ينشأ الغلو في أجواء الظلم التي تقترن باليأس.

وبناء عليه يمكن أن ندرك أن المنطلقات النظرية (العلم) ترسم الطريق، وتسهل سبل العمل، وتزيل العوائق الثقافية من جهة، وتجعل الإنجاز يبدو مشروعا وممكنا من جهة أخرى، كما أنها توفر معايير قياسه، لكنها لا توجِد العمل نفسه، وإنما توجِده البرامج والأساليب والأدوات التي نوظفها في سبيل تحقيقه.

وانسداد السبل أمام العمل ليس واقعا ولا حقيقة، وإنما هو عبارة عن قصور في مدارك وثقافة الذين يدندنون حوله، لا أقل ولا أكثر، كما يشير إلى ذلك الدكتور (عبد الكريم بكار)، وهذا ما يحدث في جو العمل المحموم، حيث يتم النظر إلى من يفكر، أو ينظّر على أنه (بيّاع كلام)، وأن الوقت وقت عمل لا وقت كلا، ثم يكتشف الناس الاختناق وانسداد السبل نتيجة ضعف التفكير.

إن العمل الذي يتم إنجازه تحت ظروف الضغط والإكراه لا يبلغ أبدا ذروته، ولا يُبذلُ فيه أبدا أقصى جهد ممكن، وإنما يبذل فيه ما يكفي فقط لاستمرار العمل، ولهذا علينا أن ندرك أنه من خلال العمل، والعمل وحده، نكتشف قدراتنا ومواهبنا ونقاط ضعفنا، كما نكتشف المحيط والوسط الذي نعمل فيه، والمحروم من ترك العمل وقد تهيأت له أسبابه.

لقد استطاع اليهود بالعمل الدؤوب التحول من أقلية مضطهدة في الغرب إلى أقلية تفرض مكانتها على الجميع، في حين جنى الجهل والكسل على آخرين فجعلهم في ذيل القائمة، رغم كثرتهم، وتعاظم ثرواتهم الطبيعية، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، وصارت ثرواتهم وبالا عليهم، وجزءا من عذابهم وتدمير حضارتهم.

يقول (تشارلز هومل)موضحا الفرق بين الأعمال التي تستهلكنا ولكن نتائجها في المستقبل المتوسط والبعيد هزيلة، وبين الأعمال التي

نتحاشى القيام بها ولو قمنا بها لصنعت فارقا كبيرا في حياتنا: «إن العمل المهم نادرا ما يجب فعله اليوم أو حتى في هذا الأسبوع، لكن العمل الملح يحتاج إلى أن ننفذه بشكل فوري، إن الإغراء السريع الذي تتصف به هذه الأعمال المستعجلة (مربع غير مهم ولكنه مستعجل)، يبدو عصيا على المقاومة والتأجيل، وهكذا تستنزف هذه الأعمال طاقتنا، ولكن عندما ننظر إليها بعد انقضاء فترة من الزمن تتلاشى أهميتها الخادعة، ونشعر بالخسارة عندما نتذكر العمل المهم (مربع المهم غير العاجل) الذي نحيناه جانبا، عندها ندرك أننا أصبحنا عبيدا لطغيان الأمور الملحة والمستعجلة»، وكل ذلك تم بالطبع على حساب الأعمال التي كانت ستصنع منا أشخاصا آخرين تماما.

إن الحل يكمن في العمل على بصيرة، وليس مجرد العمل العاطفي، وهذه البصيرة تشمل الوعي بالدين، والوعي بالدنيا التي يعمل فيها الدين، وهي التقاء العقل الذكي بالقلب النقي بالواقع الحي في تفاعل مثمر.

يقول أحد الحكماء: لا يمكن للمرء أن يتحرر من العمل بعدم القيام به، ولا يمكنه الحصول على هذه الحرية أيضا بمجرد الامتناع عنه، فالفعل معيار صدق القول، والعمل محك نفع العلم، « إذ ما يهم في التفكير ليس فقط التمكن من الفكرة، ولكن أيضا، اقتفاؤها واتباعها في العمل والسلوك».

إن الفهم الصحيح يقود إلى العمل الصحيح، والعمل الذي يعتمد على نوعية المعرفة قيّم جدا، بالعمل والتطبيق فقط تتحول المعرفة والفهم إلى جزء من ذات الإنسان، وفق تعبير (ستيفن كوفي).

كان سقراط يقول: إن أي عمل غير فضيل تقوم به، فإن أساس ذلك هو جهلك بمضار هذا العمل وحقيقته، ولذلك قيل: إن أي رغبة تشتهيها، فأنت في حجاب عن عيوبها، وربما تحمل العقول كثيرًا من المتناقضات ولا تشعر بها، إلا عند الحاجة إلى العمل بها، أو عند تعارضها مع غيرها، فتبدأ العقول بتصحيح أفكارها التي أخذتها بلا رَوِيَّة، وقيمة العمل الحقيقية تكمن في استكماله حتى النهاية، في حال كان العمل خيرا وشرعيا، لأن ترك العمل في منتصفه أو قبل ذلك أو بعده، يدل على هشاشة قاعدة اليقين التي يبنيها العلم، إذ لو كان العلم صحيحا، لأشرق على العمل، وأمدّه بالطاقة التي توصله إلى خط النهاية.

وعمل المستطاع اليوم، كما يؤكد على ذلك المفكر (جودت سعيد)، يجعل ما ليس مستطاعًا اليوم ممكنا في المستقبل، فالإنسان إذا ملأ يومه بالعمل بما في وسعه، فإن غده سيعطيه وسعًا جديدًا، وهذا أوضح ما يكون في طلب العلم، وإن تعلمك اليوم ما تستطيع تعلمه يمكّنك غدًا من فهم ما لم تستطع فهمه اليوم؛ لأن العلم درجات لا يمكن الوصول إلى فهم فكرة ما إلا بتحصيل التي قبلها، ومن خلال العمل المتدرج تتضاءل عقلية المستحيل.

ومن سنة الله أن العمل حتى يتم إنجازه فإنه يحتاج إلى (إرادة وقدرة)، ومن سنة الله أيضا أن توفر (الإرادة) أهم بكثير من توفر (القدرة)، وذلك لأن الإرادة حين تتوفر، فإن توفير القدرات والإمكانات يصبح في معظم الأحيان مسألة وقت، أي: لو وجُدت (الإرادات) لوجدت (القدرات)؛ ومنه المثل العربي القديم: «لو صحَّ منك الهوى أُرشدت للحيل»، أي لو صحَّ العزم لهديت إلى الوسائل المحققة لذلك، وهناك مثل يمني متداول، يعبر عن أهمية الإرادة يقول: (الناصح يحجن بحيف)، بمعنى أن الذي لديه إرادة ليعمل في الزراعة فسيحرث الأرض ويقلب التربة بحجر مدبب بدلا من المحراث أو آلة تقليب التربة (المفرس)، وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله:

إن الرجال إذا نووا صنع البطولة يصنعون

ولا يمكن أن يتحقق عمل ناجح بغير إخلاص وصواب، فما لا نريده ولا نخلص له لا نعمله، وما لا نعرف طريق تحقيقه لا نسعى إليه، ولو سعينا إليه بغير طريقه فلا نصل إليه، وفق تعبير المفكر (جودت سعيد).

والإرادة (الإخلاص): هي حب تحصيل أمر ما وإرادته والإخلاص له.

والقدرة (الصواب): هي معرفة كيفية تحصيل هذا الأمر المراد.

وقد أخبرنا التابعي الجليل (الفضيل بن عياض)، عندما سئل عن قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...} (هود: 7). قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا لم يقبل؛ حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وهنا يمكن أن نتصور أربعة احتمالات للعمل، واحدة منها مقبولة وثلاث مردودة:

1. أن يكون العمل خالصا وصائبا = مقبول.
2. أن يكون العمل خالصا غير صائب = مردود.
3. أن يكون العمل صائبا غير خالص = مردود.
4. أن يكون العمل غير خالص وغير صائب = مردود.

ومن أخلص في عمل ولم يكن على السنة، كما يقول الشيخ (عبد العزيز الطريفي)، فعمله بدعة لا تصح منه، وشرط الإخلاص أقوى من شرط المتابعة، لأن الله لا يقبل العمل الموافق للسنة إذا تضمن شركا في النية ولو كان يسيرا، ولكن قد يقبل الله العمل الذي به شائبة بدعة يسيرة إذا أخلص صاحبه لله.

إن في النية خيرًا كثيرًا، والعمل القائم على نية الخير خير أرفع، لأنه العمل الأخلاقي الكامل، والنية الصالحة هي تذكرة دخول ساحة العمل الأخلاقي، والعمل الأخلاقي نفسه هو تذكرة بلوغ مرضاة الله تعالى والجنة، والإخلاص يدفع إلى طلب الصواب، والصواب يولد الإخلاص وينميه، والجزاء الأخروي يكون على حسب النية، والجزاء الدنيوي على حسب الصواب، وينبغي بل يجب تحقيقهما معًا، والمشكلة ليست في ثناء

الناس عليك لقيامك بعمل نافع، لكن المشكلة هي أن يكون دافع العمل والإنجاز عندك (نيتك)، هو طلب إعجاب وثناء الآخرين فقط.

والإخلاص والمتابعة والمراقبة تعجز حظوظ النفس عن حرف وجهة العمل عن مبتغاها، والأعمال التي لا يكتمل فيها الإخلاص والمتابعة سرعان ما تفسد المرء وتفسد الجماعة، وشرط القبول والإثابة على العمل الصالح: هو العمل بأمر الله كما أراد الله.

إن العقل يقوِّم الإنسان بأعماله ويتحمّل مسؤوليتها من سعادة أو شقاء، وحين يختار العمل ينطلق من نية دافعة إلى العمل، وينتهي من العمل بنتائجه المترتبة عليه، وهو مسؤول عن النية وعن النتائج معا، فأخلاقية النية لا تغني عن أخلاقية العمل، وبذلك السعي الإنساني يصنع التاريخ البشري، وحين يؤمن المسلم بعقيدة التوحيد تتحول هذه العقيدة في نيته وفي عمله إلى قوة أخلاقية، تدفعه للحركة في الكون، لتحقيق إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ويدخل ميادين الحياة في سائر مناحي النشاط الإنساني، حتى يحدث التغيير المطلوب. وفق تعبير الدكتور (فتحي ملكاوي).

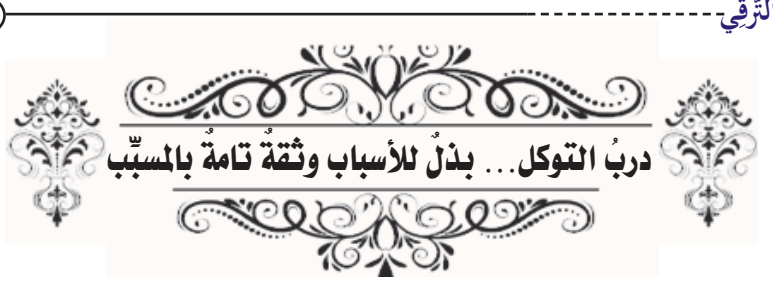

دعا أحدهم بضراعة فقال: يا رب... أعطني حرية بقدر عبوديتي لك، ويقينًا بقدر توكلي عليك، واجعل ما بيني وبينك مسافة حب، وقرّبها، (يحبهم ويحبونه)، (والذين آمنوا أشد حبا لله).

مرت علينا حقب زمنية طويلة، كان الذي يتحدث فيها عن التخطيط وعن المستقبل يثير الشك في صدق إيمانه، وفي ثقته بالله، وتوكله عليه، ولم يكن من يثير الشك يدرك حينها أن رب الماضي والحاضر والمستقبل، هو الذي أعطى في الماضي، ويعطي في الحاضر، وسيعطي في المستقبل، وألزمنا ـ سبحانه وتعالى ـ لتحقيق ذلك بإقامة شرط واحد فقط: بذل الأسباب والثقة في المُسبب جل في علاه.

إن من الإيمان بالله أخذ الإنسان بالأسباب المادية، وليس من الإيمان ترك التوكل على الله معها، فترك التوكل يُذهب بركة النتائج ولو اكتملت الأسباب، والعزوف عن الأخذ بالأسباب، والميل إلى تجاوزها لأدنى سبب، يعدُّ تواكلا، ويعد صاحبها عاصيا، وهناك قاعدة لا بد أن تكون واضحة في ذهن كل مسلم مفادها أن: الاعتماد على الأسباب وحدها شرك بالله، وترك الأسباب معصية لله، ولا نجاة إلا ببذل للسبب وتفويض للمسبب سبحانه.

والمتوكل الباذل للسبب والواثق في المسبب، يعمل في الحاضر لينال المستقبل ويأمل فيه، وسينال مناه، والمتواكل ينام في الحاضر، ويحلم بأماني المستقبل ويتمناها، وهيهات أن ينالها.

إن التوكل على الله أمل مغموس بعرق العمل، ومعجون بزيت الثقة، والتواكل أمنية أهال عليها صاحبها غبار الكسل والقعود، وتأمل معي في قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (آل عمران: 139)، كأن الآية تقول لكل قارئيها وسامعيها: انظروا في سنن من قبلكم، تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق، وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم، وأعدوا لكل أمر عدَّته، ولم يظلموا أنفسهم في العمل لنصرته، إلا وظفروا بما طلبوا، وعوضوا بما خسروا، فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم، وولّوها جهة ما يستقبلكم، وانهضوا به بالعزيمة والحزم مع التوكل على الله القائل: (وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين).

لقد ظلت شعيرة السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج إلى بيت الله الحرام قائمة دائمة، واستمرت عابرة للزمان من عصر خليل الرحمن صلوات ربي وسلامه عليه، إلى زمن حبيب الرحمن ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ظلت هذه الشعيرة كتأكيد على استدامة إيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للسبب، وحتى يُقبِل الإنسان على كل عمل من الأعمال وهو يؤمن بالمُسبب، ولذلك يجب أن نفرق

بين التوكل والتواكل، كما يقول الشيخ الشعراوي: «فالتوكل عمل قلب وليس عمل جوارح، والتواكل تعطيل عمل جوارح، وليس في الإسلام تواكل، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل، هكذا كان توكل هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، لقد عملت وتوكلت على الله؛ فرزقها الله بما تريد بأهون الأسباب، وهي ضربة قدم الوليد الصغير للأرض، وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج وهي سبعة أشواط بين الصفا والمروة».

توكل على الرحمن في الأمر كلـــه

ولا ترغبن في العجز يوما عن الطلب

ألم تـــر أن الله قـــــال لمريـــم

وهزي إليك الجذع يساقط لك الرطب

فلو شاء أن تجنيه من غير هـــزه

جنـــــته ولكن كـــــل رزق له سبب

يعتقد البعض أن التوكل ضعف واستسلام، وانسحاب من تحمل المسؤولية، ودعوة للتكاسل والتراخي والعجز، وهذا فهم خاطئ لمعنى التوكل القرآني والنبوي، فالقرآن الكريم والسنة النبوية يُبرزان التوكل في أجلى صورة وأوضح مثال، ومن هنا كان التوكل والتفويض إلى الله سبب قوة نفسية عظيمة للمؤمنين، بل وعنوانا من عناوين الإيمان واليقين، فقد ربط القرآن بين الأمر بالتوكل وإحدى أسماء الله الحسنى (الحي)، في قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ

بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} (الفرقان: 58)، وأترك لك المجال -عزيزي القارئ - لتتخيل ما يمكن أن يربط بين صفة التوكل واسم الله الحي، وكذلك ربط القرآن بين الأمر بالتوكل ورؤيته سبحانه وتعالى للعبد، كما في قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} (الشعراء: 217ـ 218ـ 219)، ولك أن تتخيل أيضا عظمة الجمع بين صفة التوكل وبعض صفات الله سبحانه كما ذكرتها الآية الكريمة.

إن المؤمن التقي يبذل الأسباب التي تعبّده الله بها، كما يريدها مسبب الأسباب، ويستفرغ في ذلك كل جهده وطاقته، وعند استفراغ الجهد والطاقة يأتي مدد الله، فهو القائل سبحانه: {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ ...} (الأنفال: 9)، ومدد الله لا يمكن تصور طبيعته، فهو مدد القوى المتين، وهو مدد العزيز الحكيم، وهو مدد الحي القيوم، يجبر الكسر، وينزل النصر، وبهذا يأوي المؤمن إلى (ركن شديد)، يقول الشاعر (أبو الفتح البستي):

واشدُدْ يَدَيْكَ بحَبلِ الله مُعتَصِمًا ... فإنَّهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْكَ أركانُ

مَنْ يَتَّقِ الله يُحْمَدُ في عَواقِبِه ... وَيكفِهِ شَرَّ مَنْ عزُّوا ومَنْ هانُوا

مَنِ استعانَ بغَيرِ الله في طَلَبٍ ... فإنَّ ناصِرَهُ عَجزٌ وخِذْلانُ

وهذا ما يجعل من سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسوة في كل مجال، لا من ناحية بناء المسلم المتوكل (النموذج) فحسب، ولا من ناحية

العبادة والمسلك والأخلاق والمبادئ فحسب، ولا فيما حملته من أوامر ونواه فحسب، وإنما أيضا من حيث تعليمنا كيف نتعاطى مع تنوع الحياة والظروف والمتغيرات تعاطيا مبدعا، يراعي سنن الله في كل مجال من المجالات، في الصحة، والزراعة، والصناعة، أو في العلوم والتكنولوجيا، أو في الحرب والسياسة والاجتماع، أو في أساليب التغيير، ونحن نمسك بثوابت الدين ونجعل عملنا خالصا في سبيل الله، والأهم أنها تعلمنا كيف نأخذ بالأسباب ونراعي سنن التغيير بينما نتوكل على الله ونرجو نصرته بالغيب، والمسلمون، وحتى في زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ما كانوا لينصروا بالغيب إلا حين كانوا يستحقونه، ذلك بعد أن يكونوا قد استوفوا الشروط الإيمانية والعبادية والتوكلية، ويكونوا قد أخذوا في الوقت نفسه بالأسباب والسنن، وساروا على العدل والحق، وتوفير شروط الإدارة الناجحة في الصراع، في حين يكون خصومهم قد راحوا يستوفون شروط الانهيار والهزيمة ترفا وفسقا وطغيانا وغرورا وغفلة، وشللا وغرقا في الأخطاء والخطايا بعضها أو مجتمعة، وفق تعبير المفكر الفلسطيني (منير شفيق).

إن الحياة المعاصرة، كما يصفها الشيخ (محمد الغزالي)، لا تشكو من متوكلين لا يعملون، وإنما تشكو من عاملين لا يتوكلون، كون الصبغة المادية سادت قارات المعمورة، وصار إنسان هذا العصر مغرورا بقوته، واثقا في فاعلية الأسباب، ناسيا مسببها ـ سبحانه وتعالى ـ، حتى صار

البعض يجزم بتحقق الفعل دون اعتبار للمشيئة الإلهية، وفي هذا ما فيه من الخذلان، قال تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} (الكهف: 23 ـ 24).

إن التوكل ثقة في الله، واستناد إليه، وأمل يصحب العمل، ونزعة لا ينطفئ وهجها مهما ترادفت المتاعب، والتوكل أهم هذه المنابع بطبيعة الحال، والتوكل مسبوق بالعزم والتصميم، ولا يكون ذلك إلا بعد تقليب الأمر على وجوهه ومحاولة الوصول إلى أفضل الطرق لحل المشكلة التي تواجه الإنسان. و(الأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية)، كما يقول (ابن رجب الحنبلي.

إن الشعور بالأمان، هو في الحقيقة شجرة ترتوي جذورها من ينابيع الإيمان والتوكل والتسليم، فإن جفّت هذه الينابيع وتلاشت تفشل قلاع الأمان الخارجي عن علاج الشعور النفسي بالأمان مهما ازدادت قوة ومناعة، بل قد تغدو نفس هذه القلاع المادية أستارا خادعة وواهية تغطي على الخواء النفسي، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} (الحشر: 2)، لقد انهارت حصونهم وقلاعهم من الداخل، وبدل أن تكون تلك الحصون حامية وممانعة لهم، صارت بالنسبة لهم سجنا وحصارا.

إن هناك لحظات من عمر الإنسان تحتفظ فيها روحه ونفسه، أيا كانت ظروفه، بثباتها واستقرارها، رغم ما ينزل به من صدمات وما يواجهه من أحداث، وهذه اللحظات هي لحظات تسليمه لأمر الله واستسلامه للقضاء الإلهي، أي استناده إلى مبدأ التفويض والتوكل، وهو رصيد الإنسان للهدوء والاستقرار، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (البقرة: 156 ـ 157).

ومن يجعل التوكل على الله ذخره ورصيد أمانه لا تنهكه تقلبات الدهر ومرارات الحياة، بل إنه ليحوّل كل هذه التقلبات والمرارات إلى درجات على سلم الارتقاء والكمال، فهذه المرارات والصعاب لا تشيّد سدا في طريق اعتلاء الإنسان ولا تكبل قدما، بل تسنده لانتشال نفسه عند مواجهة مآزق الحياة، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (آل عمران: 173)، وتأمل ماذا كان الجزاء الرباني: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} (آل عمران: 174).

يقولــون: « حَسْــبُنَا اللهُ وَنِعْــمَ الْوَكِيــلُ»، فهــم يتوكلــون عــلى الله ليخرجـوا مـن الواقـع السيئ إلى واقـع جديـد! ولا يمنعهـم قـدر الله السـابق من التطلـع إلى قـدر جديـد! وإذا كان قـدر الله الأول قـد أصابهـم بخطـأ ارتكبـوه (كـما في غـزوة أحـد)، فهـم يتطلعـون إلى قـدر الله الآخـر بعمـل يقدمونـه بـين يـدي ذلـك التطلـع، وهـو الاسـتجابة لله والرسـول، أي بسـلوك صحيـح بعـد السـلوك الـذي وقعـت فيـه الأخطـاء، وهـو اتخـاذ الأسـباب مـع التـوكل عـلى الله، وهكـذا لم يتعـارض في حـس صحابـة النبـي ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ التسـليم بقـدر الله الواقـع مـع العمـل عـلى التغيـير، كـما أشـار إلى ذلـك الأسـتاذ (محمـد قطـب).

قمـة التـوكل أن تبـذل كل جهـدك، وأن تسـتقصي كل الأسـباب حسـب طاقتـك، ثـم تفـوض أمـرك لربـك، ربـك الـذي خلقـك وخلـق الأسـباب، وليكـن يقينـك كيقـين المصطفـى ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ في هجرتـه، وثقتـك كثقتـه، عندمـا قـال لـه صاحبـه أبـو بكـر الصديـق رضي الله عنـه وهمـا في الغـار: لـو أن أحدهـم نظـر تحـت قدميـه لأبصرنـا، فقـال لـه صـلى الله عليـه وسـلم: يـا أبـا بكـر، مـا ظنـك باثنـين الله ثالثهـما، لا تحـزن إن الله معنـا، فـماذا كانـت ثمـرة هـذا اليقـين وهـذه الثقـة؟ كانـت الثمـرة حفـظ الله لرسـوله، قـال الله تعـالى: {وَرَدَّ اللهُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا بِغَيْظِهِـمْ لَمْ يَنَالُـوا خَـيْرًا وَكَفَـى اللهُ الْمُؤْمِنِـينَ الْقِتَـالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّـا عَزِيـزًا} (الأحـزاب: 25).

موضـوع التـوكل يحتـاج إلى ثقـة مطلقـة ويقـين جـازم بـأن المتـصرف

المطلق في هذا الكون هو الله، وأن تفويض الأمر له بعد استفراغ الجهد واستقصاء الأسباب، هو ركون إلى القوة العظمى والحكمة العليا، وما على الإنسان بعد هذه الثقة وهذا اليقين وهذا التفويض إلا التسليم والرضا باختيار القوي الحكيم له، وعند ذلك يتنزل على قلبه برد الاطمئنان والسكينة، وهو يردد مع مؤمن آل فرعون كما في قوله تعالى: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} (غافر: 44 ـ 45)، فهل بعد هذا الأمان أمان؟ وهل بعد هذه الطمأنينة طمأنينة؟ وهل بعد هذا الاستقرار استقرار؟ اللهم لا، وتأملوا معي عاقبة وثمرة ونتيجة تفويض الأمر لله: فعندما قالوا: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} (البقرة: 156)، كان الجزاء {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (البقرة: 157).

وعندما قالوا: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (آل عمران: 173)، كانت العاقبة: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} (آل عمران: 174)، وعندما قال مؤمن آل فرعون، وهو حال كل مؤمن يقول مثله: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (غافر: 44)، كانت الثمرة والنتيجة: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} (غافر: 45).

إن التوكل على الله من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن تمام

التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، بمعنى أن يجعل الأسباب عمل جوارحه، وأن يجعل المُسبب ـ سبحانه وتعالى ـ عمل قلبه، كما نقول في دعائنا: (اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا)، لأن الدنيا والأسباب إذا دخلت القلب أربكته وشوشت عليه، وعندها ينسى الإنسان ربه، ومن نسي ربه نسي نفسه، قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (الحشر: 19)، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، وقد أجمع العلماء العارفون على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، بل لا يصح إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد، ومن هاهنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها يكون عن القلب لا عن الجوارح، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفقرة السابقة، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعا عنها من ناحية القلب متصلا بها من ناحية الجوارح، وبمعنى آخر أن يكون القلب متصلا بالمُسبب ـ جل في علاه ـ، والجوارح متصلة بالأسباب قائمة بها خير قيام، فكأن القلب هنا من خلال تعلقه بالمسبب يستنزل العون من ربه على تيسير الأسباب التي تجترحها جوارحه، ومثل هذا لن يخيب له رجاء، وهذا ما عناه (ابن عطاء الله السكندري) عندما قال: (ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك)،

وعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو الإنسان إلى التوكل عليه سبحانه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه، والحديث القدسي الذي قال فيه المولى سبحانه: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) واضح أشد الوضوح في توجيه المسلم إلى حسن الظن بربه.

إن التفويض هو روح التوكل ولبّه وحقيقته، وهو إلقاء المؤمن أموره كلها بين يدي الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا، والمفوض لا يفوض أمره إلى الله إلا لإرادته أن يقضي الله له ما هو خير له في معاشه ومعاده، وإن كان المقضي له خلاف ما يظنه خيرا، فهو راضٍ به، لأنه يعلم أنه خيرٌ له، وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه، وكثيرا ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفويض بالإضاعة، فيضيّع العبد حظه، ظنا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لا تفويض، وهذا معنى قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعاء الاستخارة: (اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم)، فهذا توكل وتفويض، ثم قال: (فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب)، وهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه ـ سبحانه وتعالى ـ بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان

فيه مصلحته عاجلا أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا، فهذه هي حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال: (وأقدر لي الخير حيث كان ورضني به). رواه البخاري.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية). قال تعالى في حال مؤمن آل فرعون عندما ذكّر قومه وفوّض أمره إلى ربه: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (غافر: 44)، فكان جزاء تفويضه: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} (غافر: 45)، والواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة وباذر الأرض، والمغتر العاجز قد فرّط فيما أمره الله به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود... وفق تعبير ابن القيم في كتابه القيم مدارج السالكين.

إن سر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب، مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله (توكلت على الله) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، حسب تعبير شيخ الإسلام، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد (توكلت على الله) مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله

(تبت إلى الله) وهو مصرٌّ على معصيته مرتكب لها، وقد استدل المتواكلون على قعودهم وتكاسلهم بقول النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لو أنكم تتوكّلون على الله حق توكله لرُزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتعود بطانا) (رواه الترمذي)، والحق أن الحديث حجة عليهم، ولذلك احتج به الإمام أحمد لما سئل عن الرجل يجلس في المسجد ويقول: لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي، فقال: هذا رجل جهل العلم، ثم ذكر الحديث السابق، وقال صاحب المنار: استدل به على أن التوكل يكون مع السعي، لأنه ذكَر أن الطير تذهب صباحًا في طلب الرزق، وهي خماص البطون لفراغها وترجع ممتلئة البطون، ولم يقل إنها تمكث في أعشاشها وأوكارها فيهبط عليها الرزق من غير أن تسعى إليه.

إن التوكل شِقٌّ من سبب الرزق الطيب، وليس كل السبب، والسعي المادي شِقٌّ من سبب الرزق الطيب وليس كل السبب، وكمال السبب يتم باجتماع الشقين معًا، والمؤمن يعقل ويتوكل، ويفر من قدر الله إلى قدر الله، بصيرا بنفسه وأدائه ومسؤوليته، فإيمانه سعي، وسعيه إيمان، ولو توكل الإنسان على الله حق توكله لرضي بما يفعله الله له، والله لا يفعل للإنسان وبه إلا ما فيه مصلحته في الدنيا والآخرة، وإن خفيت على الإنسان أوجه الحكمة في صنيع الله أحيانًا.

والمتأمل في قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (آل عمران: 139)، يجد نوعا من التثبيت والتطمين والمواساة،

كأنه يقول لهم: انظروا في سنن من قبلكم، تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق، وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم، وأعدوا لكل أمر عدَّته، وتوكلوا على الله حق توكله، ولم يظلموا أنفسهم في العمل لنصرة دينه، إلا وظفروا بما طلبوا، وعوضوا بما خسروا، فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم، وولّوها جهة ما يستقبلكم، وانهضوا به بالعزيمة والحزم.

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها الذي أخرجه أبو داود بسند حسن صحيح، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا خرج من بيته قال: (بسم الله، توَكَّلتُ على الله، اللَّهمَّ إني أعوذُ بك أنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أوْ أُزَلَّ، أو أظْلِمَ أو أظْلَمَ، أو أجْهلَ أو يُجهَلَ علي). وفي رواية أخرى للحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (مَنْ قَالَ - يعنِي إذا خرَجَ مِنْ بيْتِه -: بسمِ الله تَوكَّلتُ على الله، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، يُقالُ له: هُدِيتَ وكُفيتَ ووُقِيتَ، وتنَّحَّي عنه الشَّيطانُ)، وعندها يقول - يعني الشيْطانُ لشيطانٍ آخرَ -: (كيف لك برجلٍ قدْ هُدِي وكُفِي ووُقِي؟). روى الحديثين أبو داود في سننه، وصححهما الألباني.

إن هذا الحديث بروايتيه يجعل الإنسان أكثر استحضارا للمعيّة الإلهية، فخروجه من بيته لطلب الرزق يتطلب منه تفويض أمره إلى الله والاستعانة به، وفي هذا ما فيه من الطمأنينة وراحة البال، واستبعادا لعنصر التردد وفزع القلق الذي يكتنف الإنسان، عندما يتزعزع إيمانه وثقته بالله، والشيطان حريص على أن يزعزع إيمان الإنسان وثقته بالله،

فيسعى إلى أن يضله أو يزله أو يجعل منه ظالما أو مظلوما أو جاهلا أو مجهولا عليه، فيأتي هذا الحديث ليكون حصنا للإنسان من الوقوع في حبائل الشيطان (إذا قاله الإنسان بيقين وثقة تامين)، وعندها يتنحى الشيطان عن طريق من هذا حالهم ليواصلوا عملهم وطلبهم للرزق في نشاط وحيوية وإنتاج مبارك.

درب الكرامة .. ثقةٌ وعزة نفس

لم أجد أبلغ ولا أكثر دلالة من قصيدة القاضي (علي بن عبد العزيز الجرجاني)كي استهل بها هذا الدرب (درب الكرامة)، هذه القصيدة التي عبر فيها الجرجاني عن نفسه الأبية وعن كل نفس حرة كريمة تأبى المذلة، فأبيات هذه القصيدة تعطي للنفس عزتها وللعلم مكانته وشرفه، وقد أوردت بعض أبياتها، ويمكن لمن يريد الاطلاع على القصيدة كاملة أن يبحث عنها في النت، وهذه هي الأبيات المختارة منها:

يَقُولونَ لِيْ فِيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوا رَجلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ
عِنْدَهمْ وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كنت كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا
وما زلتُ مُنحازًا بعرضي جانبا
عن الذل أعتَدُّ الصيانةَ مَغنَمَا
إذا قِيلَ: هذا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظما

وأقبض خَطْوي عن حظوظٍ كثيرة
إذا لم أنلها وافرَ العِرض مُكْرَما
وكم نعمةٍ كانت على الحُرِّ نقمةً
وكم مغنمٍ يعتَدُّه الحرُّ مَغرما
ولم أبتذِل في خدمة العلم مهجتي
لأخدِم من لاقيت لكن لأُخْدَما
أأشقى به غَرْسًا وأجنيه ذِلةً
إذا فاتباعُ الجهلِ قد كان أحزَما
ولو أنّ أهلَ العلمِ صانوه صانهم
ولو عظَّموه في النفوسِ لعظما
ولكن أهانوهُ فهانوا ودنَّسوا
مُحَيَّاهُ بالأطماع حتى تجَهَّما
وما كل برقٍ لاحَ لي يستفِزني
ولا كل مَن لاقَيتُ أرضاه مُنعِما

قال (التاج السبكي) رحمه الله تعالى، بعد أن أورد هذه القصيدة الفائقة العصماء في ترجمة الجرجاني: « لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه! وما أعلى على هام الجوزاء موضعه! وما أنفعه لو سمعه من سمعه! وهكذا فليكن الشعر والأدب وإلا فلا، ويا ليت كل عالم وطالب علم ينقش هذه الأبيات في صدر مجلسه، وعلى صفحة قلبه، ويجعلها دستوره في حياته،

وإمامه في خلائقه!».

لقد قضى عدل الله أن يكون ميزان الكرامة الإنسانية أمرًا كسبيًا اختياريًا، وليس أمرًا قسريًا إجباريًا لا يد للإنسان فيه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: 13)، فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، فلا الأجناس ولا الألوان ولا الأقوام ولا سائر الأمور القسرية، التي لا يد للإنسان في وجودها أو تغييبها، تعد ذات وزن أو قيمة أو معيارية في ميدان الكرامة الإنسانية، مع الأخذ في الحسبان أن الإنسان في أصل خلقته خلق مكرما، والكرامة الكسبية التي يتحصل عليها بتقواه، إنما هي نور على نور الكرامة التي خلقه الله عليها.

إن العبادة في الإسلام تربي النفس المسلمة على العزة والكرامة، وإباء الضيم، والاعتزاز بالله لأنه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، بيده رقاب الجبابرة يقصمهم متى شاء، وبيده الموت والحياة، والرزق، والملك والجاه والسلطان، وفق تعبير (عبد الرحمن النحلاوي)، وهذه المعاني وأمثالها يرددها المسلم دائما في عباداته اليومية والسنوية.

لقد أصبح ميزان التفاضل والكرامة اختياريًا، فالأكرم هو الأتقى، وبذلك أُعيد بناء الإنسان، وأعيد نسيج المجتمع، وتم إلغاء الطبقية والعنصرية والطائفية بكل ملحقاتها واستحقاقاتها، ولهذا فإن إرجاع السلوك الإنساني كله إلى آليات غريزية تسطيح أخلاقي معيب لكرامة

الإنسان ذي الإرادة الحرة، ولا حاجة للافتراض بأن الدوافع الواعية للإنسان المعافى ليست هي الأسباب الحقيقية لتصرفاته.

إن الإنسان في نظر الإسلام يستحق هذه الكرامة الإنسانية بمقتضى كونه إنسانا لا للونه، ولا لجنسه، ولا لكونه ذا مكانة ومنزلة أو ذا جاه، بل لكونه إنسانا فقط، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (الإسراء: 70)، ولدينا في مواقف كثيرة من الرعونة ما يغلب التعقل، ومن التخاذل ما يغلب العزيمة، ومن الحرص على الدنيا ما يغلب الدفاع عن الكرامة، ومن التنازع على السلطة والنفوذ ما يغلب التعاون على البر والتضحية في سبيل المبدأ، ومع أننا نقرأ قوله تعالى: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} (هود: 78) إلا أن حالنا يشير بوضوح إلى أن الرشد صار بالنسبة لنا بعيد المنال، ومع ذلك فإن ما تحتاج إليه الأمة هو قليل من الرشد، وقليل من الرجولة، وبعضا من المروءة.

من الواضح أنه ليس هناك من يتغنى بالعبودية أو يدعم ثقافتها، لكن الواقع يقول: إن هناك مئات الملايين من الناس الذين يشعرون أنهم مضغوطون ومسلوبو الكرامة، ويقومون بأعمال كثيرة لا تليق بالآدميين، يريقون من خلالها ماء وجوههم، ويتخلون في طريقهم إليها عن بعض إنسانيتهم، فيعيشون ناقصي كرامة، ويموتون كذلك، وأحيانا تغادرهم الكرامة إلى غير رجعة، فيحسبهم الجهال بشرا، وما هم كذلك، قال

تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (المنافقون: 4).

إن للإنسان كرامة يستحقها بصفته الإنسانية بصرف النظر عن جنسيته ولونه ومعتقده، وسائر الاعتبارات الاجتماعية، وهي كرامة تلازمه حيًا وميتًا أيضًا، فذاته مستحقة للتكريم في حياته وبعد موته، والكرامة تعني أن (الإنسان فوق كل ثمن)، أي لا يمكن بيعه بأي سعر، فكل ما له ثمن سلعة أو وسيلة لغيره، والإنسان ليس سلعة تباع وتشترى، وليس وسيلة إلى أي شيء، إنما هو غاية متفردة في حد ذاتها، والإنسان كما أراد له الإسلام عزيز، وهو خليفة مكرم، وعبوديته لله هي مثار عزة وكرامة، لأنها تعبير عن إرادة حرة في معرفة الحق واتباع طريقه السوي القويم. والمسلمون المؤمنون هم عباد الله المخلصون، وليس صدفة أن الله سبحانه خاطب الإنسان في القرآن بلفظ (عباد) ومنها (عبَّاد) فقد جاء اللفظ من التعبيد وليس من الاستعباد خلافا للفظ عبيد، والكرم في عرف الفطناء هو أن تعطي أكثر من استطاعتك، أما عزة النفس فهي أن تأخذ أقل مما تحتاج، وعزة النفس هي أن تتقمص دور المكتفي بأي شيء وأنت في أمس الحاجة لكل شيء.

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوعَ هو الفقر

وبيني وبين المال بابان حرّما عليَّ الغِنى، نفسي الأبية والدهر

لقد صدق من قال: حافظوا على الشرفاء (أي الذين لديهم رصيد

من كرامة) ولو كانوا خصومكم، ولا تفرحوا بالسفهاء ولو وقفوا معكم، فالشريف لن تجده في مواقف الكرامة إلا شهمًا، يأبى أن يدنس مقامه بفعل قبيح أو قول مشين، والسفيه لا تفرح به، ولا تعول عليه، فهو اليوم معك، وغدًا عليك.

وترتبط كرامة الإنسان في القرآن بثلاثة أمور مهمة:

الأول هو: أن الإسلام يقر خلافة الإنسان لله في الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} (البقرة: 30).

والثاني هو: أن الإنسان يحمل الأمانة من قبل الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (الأحزاب: 72).

أما الثالث: فيتعلق بعدم وجود أي حائل بين الإنسان وربه في الإسلام، فهو دين لا يعرف وساطة بين الأرض والسماء، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة: 186).

لقد جاءت في الإسلام أحكام كثيرة تلتقي كلها عند مقصد حفظ كرامة الإنسان للحفاظ على معنى الإنسانية فيه، أمرا بكل ما من شأنه أن يُشعِر بالعزة والقوة النفسية والاستعلاء، ومنعا لكل ما من شأنه أن يُشعِر بالمذلة والهوان والوهن، سواء كان ذلك متمثلا في تصرفات فعلية، أو كان متمثلا في تصرفات قولية، فأيما فعل أو قول يشعر بالكرامة والعزة

فهو مطلوب في الشرع، وأيا فعل يشعر بالمذلة والهوان فهو ممنوع، وفي ذلك كله حفظ للكرامة الإنسانية.

يرى (محمد عبد الله دراز) أن الكرامة التي يقرها الإسلام للإنسان ليست كرامة مفردة، إنما هي كرامة ذات أبعاد ثلاثة:

أولا: عصمة وحماية، وعزة وسيادة، واستحقاق وجدارة، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (الإسراء: 70).

ثانيا: أنها كرامة مستمدة من طبيعة الإنسان، تتغذى من عقيدته، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (المنافقون: 8)

ثالثا: أنها كرامة يستوجبها الإنسان بسعيه وعمله وجهده واجتهاده، قال تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: 132).

لقد أدرك القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص طبيعة هذا الدين، والنظام الجديد الذي دخل مصر، وأدرك معها خطورة الأخطاء البسيطة؛ لأن لطمة بغير وجه حق، معناها الكبير هو اختراق (الكرامة الإنسانية) لكل فرد يعيش في مصر، وسيلحقها بعد قليل ضربة سيف، والقضية هي قضية وقت لا أكثر، والأمة بأكملها تصف بالدور، ولذلك أراد هذا القبطي أن يوقف عجلة هدر الكرامة الآدمية في بدايتها، فتجشم

السفر من مصر إلى المدينة المنورة كي يضع حدا لهذا التجاوز، وقد كان له ما أراد، وسمع تلك المقولة العُمرية التي ردد صداها سمع الزمان: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا).

ورحم الله الإمام الشافعي الذي تنسب إليه أبيات شعرية يلخص فيها طبيعة الحياة، ويضع فيها نفسه في مكانها اللائق بها، واثقا بربه معتزا بنفسه، ومن هذه الأبيات نختار هذين البيتين الرائعين:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا

همتي همة الملـــــوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

والإسلام -انسجامًا مع الكرامة التي أقرّها للإنسان- جعل تلك الكرامة مقترنة بالحرية، الحرية بكل أنواعها، حرية المعتقد والفكر والتعبير والتدبير، وهذا ما تناوله العلماء والمفكرون المسلمون، على اختلاف عصورهم وتنوع السياقات التي تحدثوا فيها، فإذا تجاوزنا النقاشات الفلسفية والكلامية بين الفرق قديمًا، فإننا نجد من المعاصرين من تناولها من الزاوية الأصولية أو الفقهية أو المقاصدية، ومنهم من تناولها من الزاوية السياسية وحقوق الإنسان، وكلّهم خلصوا في النهاية إلى أن الحرية من مقتضيات الكرامة الإنسانية، أقرّها بل أوجبها الإسلام، وحرّم كل صنوف الاعتداء عليها.

لذلك يعد الإكراه على الدين مناقضا لكرامة الإنسان من جانب، كما يناقض قيم الدين ونصوصه من جانب آخر، فحرية التدين قيمة

أساسية في المجتمع الإسلامي، وعدم الإكراه والقبول بصاحب الخيار والمعتقد (الآخر) هو استجابة لأوامر الدين والتزام بقيمه، قال تعالى مخاطبًا المؤمنين: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة: 256)، فالمطلوب إليهم هو بيان الرشد من الغي وترك الحرية للناس، فالإكراه يضع (أقنعة) مزيفة ولا يحقق (قناعة)، ويخلق إنسانًا مزيفًا منقوص الإنسانية، ويزيد من مساحة النفاق والمنافقين، وهو ما أشار إليه الشيخ (محمد الخضر حسين) حين قال: «وما شاعت المداهنة (النفاق) في جماعة إلا تقلصت الكرامة في ديارهم، وكانت الاستكانة شعارهم ودثارهم، ومن ضاعت كرامتهم؛ جالت أيدي البغاة في حقوقهم، وكان الموت أقرب إليهم من حبال أوردتهم». ونكتفي هنا بنقل بعض ما ذكره الشيخ (علال الفاسي)، وهو يناقش (الحق في الحرية) من جميع جوانبه، ففي كلامه ما ينم عن رؤية أصولية مقاصدية، وإدراك لارتباط الحرية في المجال السياسي بكرامة الإنسان. يقول وهو يحدّد المقدمات الفلسفية العامة: «الحرية الإسلامية جُعْلٌ قانوني، يتفق مع إنسانية الإنسان وفطرته، وليست حقًّا طبيعيًا يستمد من غريزة الإنسان المتناقضة، فالإنسان ما كان ليصل لإدراك حريته على الوجه الذي أراده الإسلام لولا نزول الوحي، ولولا الرشد الديني الذي جاء به القرآن... إن الحرية لا تعني أن يفعل الإنسان ما يشاء ويترك ما يريد،

فذلك قد يتفق مع طبيعة شهوته، ولكنه لا يتفق مع طبائع الوجود كما ركب عليه، ولكنها تعني أن يفعل الإنسان ما يعتقد أنه مكلّف به، وما فيه الخير لصالح البشر أجمعين..... وإيمان الإنسان بأنه مكلّف هو أول خطوة في حريته؛ لأنها تحمل المسؤولية، التي ستناط به».

إن الالتزام لا يخدش كرامة الحرية، كما قد يبدو للبعض، ولكنه يبعثها من منطلقات صحيحة، ويحلها في مكانها اللائق بها، بعيدا عن منحدرات الإسفاف والرذيلة، وثمة نقطة نشير إليها هنا، وهي أنّ الحرية المنفصلة عن الكرامة الإنسانية الحقّة تتحول مع مرور الزمن إلى أسوأ أنواع العبودية، وهذا ما عرفته التجربة الغربية، حينما حرّرت الإنسان من كل شيء، من سلطان الكنيسة ورجال الدين، ثم من سلطان الله... هكذا زعمت، فإذا بها توقعه في عبوديات لا حصر لها!! أما الرؤية الإسلامية، فهي تجعل من العبودية لله الحق بابًا للحريّة، المدعِّمة لكرامة الإنسان، أولًا، قبل أن تكون جزءًا أو حقًّا من حقوق الحياة السياسية.

هناك من يدَّعي أن بإمكان الناس أن يكونوا أحرارا وهم يتضورون جوعا، جاهلا أو متجاهلا أن الكرامة والحرية، ليست شعارات ترفع، بمقدار ما هي نواتج للخروج من عالم القهر والضرورة إلى عالم الخيارات المتعددة، وفق تعبير الدكتور (عبد الكريم بكار).

ولنختم حديثنا عن الكرامة والحرية بلفتة لطيفة للشيخ (علال الفاسي)، ينبه فيها إلى تلازم العبودية مع الحرية والكرامة الإنسانية فيقول:

قال الله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} (البينة: 1ـ 2ـ 3)... «والعجيب أنّ المفسّرين قاطبة لم يدركوا قيمة هذه الآية؛ لأنهم لم يهتدوا للمراد بالانفكاك فيها، مع أنّ أقرب دلالته اللغوية هي التحرير، فلم يكن الكفّار منفكين، أي متحررين من ما عبّدهم لغير الله إلا بعد أن جاءتهم الحجّة القاطعة، التي ليست إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلو صحفًا مطهرة، فيها كتب قيمة، تخاطب العقل، وتدعو إلى التفكير، وتنادي بالحرية والكرامة الإنسانية».

وقد سأل صحفي إنجليزي امرأة فلسطينية: ما الذي يحتاجه الأطفال في المخيم؟ فأجابت قائلة: إنهم يحتاجون إلى (دولة)، ثم مضت تقول: نفضّل الموت جوعا على أن نستسلم، وكأني بهذه اللبوة الفلسطينية تشير إلى أن كرامة المواطن مرتبطة بكرامة دولته، وأن كرامة الأوطان مرتبطة بكرامة المواطنين، وكأني بها تتمثل بقول الشاعر:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين ضرب القنا وخفق البنود

أو تتمثل ببيت عنترة بن شداد حين قال:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس العلقم

ولعنترة هذا قصة مع الكرامة، فقد كان أبوه شداد لا يعيره اهتماما، لأن أمه جارية، ولذلك جعل عمله مرتبطا برعي الغنم وحلبها، ولكن عنترة تعلم الفروسية وفاق فرسان القبيلة، فلما غارت قبيلة أخرى

عـلى قبيلـة شـداد والـد عنـترة، اسـتطاعت أن تتغلـب عليهـا، ولم يشـارك عنـترة في بدايـة المعركـة، فصـاح بـه والـده: أن كـرّ يـا عنـترة، فأجابـه عنـترة: العبـد لا يكـر لأنـه لا يصلـح إلا للحلـب والـصر، فصـاح بـه أبـوه: كـرّ وأنـت حـر، عندهـا أخـذ عنـترة سـيفه واسـتعاد كرامـة قبيلتـه بعـد أن اسـتعاد كرامتـه أولا.

لقـد قيـل قديـما: القـرارات التـي تصنعهـا الكرامـة صائبـة، وإن أوجعت فإنهـا عـلاج لـذل العبوديـة للبـشر، وكـم مـن أنـاس يتنازلـون عـن كرامتهـم في مقابـل أشـياء تافهـة لا تسـاوي بجانـب مـا تنازلـوا عنـه شـيئا، ولذلـك يمكـن اعتبـار تنـازل الإنسـان عـن كرامتـه، ينـم عـن عـدم معرفتـه بقيمتهـا، ولـو عـرف قيمتهـا مـا تنـازل عنهـا، (فالحـرة تجـوع ولا تـأكل بثدييهـا)، والرجـل الـذي يـدرك مكانـة الكرامـة الإنسـانية وقيمتهـا يقـول: (المـوت ولا المذلـة).

ولكـي يبـدع الإنسـان في أي مجـال، لا بـد أن يشـعر بـأن كرامتـه مصانـة، وأي شـعور ينقـص مـن شرط الكرامـة الإنسـانية، سـينعكس بشـكل مبـاشر عـلى الشـخصية وقدراتهـا، فتصـاب بنـوع مـن الإحبـاط، قـد تجعـل منـه أشـبه بالإنسـان المشـلول، غـير القـادر عـلى الحركـة والإنتـاج وربـما التفكـير أيضـا، وبهـذا تصبـح قيمـة الكرامـة معادلـة لقيمـة الإنسـان برمتهـا، فالإنسـان بـدون كرامـة لا يسـاوي شـيئا، لأنـه سـيكون عاطـلا ومعطِّـلا في الوقـت نفسـه، فكرامـة الإنسـان هـي قيمـة الإنسـان، كونـه إنسـانا بغـض النظـر عـن أصلـه أو جنسـه أو عمـره أو حالتـه.

سـئل الفيلسـوف الفرنـسي المشـهور (جـان جـاك روسـو) مـا هـو

الوطـن؟ فأجـاب: الوطـن هـو المـكان الـذي لا يبلـغ فيـه (مواطـن) مـن الثـراء مـا يجعلـه قـادرا عـلى شراء (مواطـن) آخـر، ولا يبلـغ فيـه (مواطـن) مـن الفقـر مـا يجعلـه مضطـرا أن يبيـع نفسـه أو كرامتـه.

إن الكرامـة حـق طبيعـي وقيمـة مجـردة تولـد مـع تشـكل الإنسـان، وتبقـى معـه إن لم يتنـازل عنهـا حتـى موتـه، ولا علاقـة للكرامـة بـما يقدمـه الإنسـان أو بحالـة الإنسـان، فالكرامـة لا تمنـح ولا تصـير مـن خـلال الأعـمال أو الحالـة، لذلـك فـإن كرامـة رئيـس جمهوريـة، أو ملـك مملكـة، أو عـالم الفيزيـاء، أو الطبيـب، أو الفـلاح، أو العامـل، هـي نفسـها، وهـي قيمتهـم كبشر متسـاوين أمـام قانـون عـادل.

كـما يولـد الإنسـان حـرا، فهـو بـذات الوقـت يولـد ذا كرامـة وأنفـة واعتـزاز بالـذات، وإن الشـعور بالكرامـة والاعتـزاز بالـذات متغلغـل في أعـماق الأطفـال حتـى الصغـار منهـم، ومـن الحيـوي والـضروري المحافظـة عـلى هـذا الشـعور، وإن كثـرة التوبيـخ وتـوالي النصـح تضعـف ذلـك الشـعور وقـد تقتلـه، وآنـذاك يكـون مـن الصعـب إثـارة حميـة الطفـل، أو الحصـول عـلى اسـتجابة جيـدة منـه.

وفي هـذا السـياق يمكننـا أن نستشـهد بمقولـة ابـن خلـدون، والتـي قـال فيهـا: (ومـن كان مربـاه بالعسـف والقهـر مـن المتعلمـين، حملـه ذلـك عـلى الكـذب والخبـث، وهـو التظاهـر بغـير مـا في ضمـيره، خوفـا مـن انبسـاط الأيـدي عليـه بالقهـر، وعلّمـه ذلـك المكـر والخديعـة، وصـارت لـه هـذه عـادة

وخلقا)، وكلام ابن خلدون واضح، فمن خلال التربية يمكن أن نصنع بأيدينا نفوسا كريمة عزيزة، أو يمكن أن نصنع نفوسا دنيئة ذليلة مخادعة، ومن الواضح أن تفاوت القدرات لا يتعارض مع تساوي الكرامات، كما أن من الواضح أيضًا أن التكافل والتعاون والتراحم جزء لا يتجزأ من تحقيق الكرامة الإنسانية، فليس مكرّمًا من يمد يده عن حاجة.

والمعروف أن ما يترتب على الأمور القسرية، من فلسفات ومسوغات، إنما هو في حقيقته لوضع مشروعية للتسلط والاستئثار والتحيز، لأنها جميعها تتناقض مع العدل والعقل، وتملأ الدنيا بالصراعات والأحقاد والثأر والانتقام، وتؤجج نار العداوة والبغضاء، وتستدعي الحروب والنزاعات، التي تلتهم البشرية، بسبب غياب موازين العدل والكرامة السليمة، وتسويغ تسلط الإنسان على الإنسان، الذي يعد مصدر الشر في العالم، مهما اتخذ هذا التسلط من أشكال التدليس وفلسفة التبرير والتمرير.

نعم، إن شئت أن ترى بالغا كريما فنشِّئ صغيرا على الكرامة والاحترام والثقة والتقدير، وهذه مسؤولية يكثر التفريط فيها، بل يصل الحال إلى قيام الأسرة أو المدرسة بتمريغ كرامة الطفل بالطين، فالضرب الانتقامي، والإهانات المتكررة، تمسخ فطرة هذا الطفل، وتطمس بذور الكرامة لديه، فينمو هذا الطفل جسما، ولكنه لا يحمل في حناياه أي ذرة من كرامة أو عزة نفس، وعلى أكتاف هؤلاء يعتلي المستبدون، وتطبق خطط

المستعمرين.

إن الإنسان الذي يساق قسريا في المجتمع، وتهدر إنسانيته، وتطمس معالم شخصيته، إنسان معطَّل القوى، مزعزع الشخصية، قلق وخائف ولن يستطيع أن يشترك بقوة وأمان في بناء مجتمع الإنسان، فقوة السياسة الاجتماعية وتماسكها وشورويتها وتقدمها تتماسك طرديا مع إبراز كرامة الإنسان وتحقيق آدميته، ولا يمكن أن تتحقق كرامة الإنسان إلا من خلال مبدأين: الأول: إقرار حريته، والثاني: عدم استغلاله من حيث هو إنسان.

والأصل أن تكون جهودنا التربوية التي نبذلها عبارة عن (خدمة) نقدمها لمن نربيهم، ولكن بعضنا يحولها أحيانا إلى نوع من الاستعباد حيث يميلون إلى إظهار تفوقهم من خلال إثبات دونية الطفل الذي يربونه، وفق تعبير الدكتور (عبد الكريم بكار).

عامل ولدك أو من تربيه كأنه كبير بالغ، فإن للطفل عزة وكرامة يذلها البطش ويهينها الإكراه، والكرامة إن لم يرضعها الصغير مع حليب أمه، فإنه لن يشمّ رائحتها كبيرا، ولن يتشرف بحملها، ولن يعطيها للآخرين، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولو سقي أنهارا من الحليب، والكرامة إن لم تغرس في الصغر، وتنمو مع الطفل فلا يمكن تداركها، أو تعويضها بأي طريقة، فمن شبّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه.

درب التحرر... استردادُ لإنسانية الإنسان

من الأمور ذات الدلالة أن القرآن جاء خاليا من كلمة (الحرية) ذاتها، ومتضمنا لمفهوم (تحرير) كاشفا بذلك أن الحرية تكليف وليست حقا، وأن المجتمع الإسلامي هو مجتمع الواجب، ويورد القرآن الكريم معظم التكليفات، بلفظ الجمع، كما يشير إلى المكلف في الغالب بصيغة الجمع، بما لذلك من دلالات حول الطابع التكافلي للتحرير وحماية حرية الإنسان.

والقرآن عنى بتحرير الإنسان من العبودية للبشر، سواء كانوا ملوكا كفرعون، الذي يمثل السلطة السياسية، أو أغنياء كقارون، الذي يمثل السلطة الاقتصادية والمالية، أو كانوا أنبياء كعيسى بن مريم، ويمتاز مفهوم الحرية الذي يطرحه التصور الإسلامي بأنه يلبي حاجة الإنسان في التحرر الداخلي والخارجي على حد سواء، في حين تقتصر نظم التربية المنقطعة سواء كانت شرقية أو غربية على التحرر الخارجي، ولكنها تُبقِي الإنسان مسترقا لشهواته الداخلية، والرق الداخلي ـ أو الرق النفسي ـ هو سبيل الرق الخارجي ـ أو الرق الاجتماعي -.

وقد تساءل (زيجمونت باومان)، في كتابه (الحداثة السائلة) عن طبيعة التحرر فقال: هل التحرر نعمة أم نقمة؟ هل هو نقمة متخفية في صورة نعمة؟ أم نعمة نخشى أن تكون نقمة؟ مثل هذه الأسئلة كانت

تشغل المفكرين طوال أغلب فترات العصر الحديث الذي وضع التحرر على قائمة أجندة الإصلاح السياسي، والحرية على قائمة القيم التي يدعو إليها، فقد اتضح تماما أن الحرية تأخرت في الوصول، في حين تلكأ في الترحيب بها من أريد لهم أن ينعموا بها، وكما يقول الكاتب الأمريكي (هربرت سباستيان آغار) في كتابه (آن أوان العظمة): «الحقيقة التي تجعل الناس أحرارا هي في الغالب الأعم الحقيقة التي لا يفضل الناس أن يسمعوها».

وقد أشار الأستاذ الدكتور: (سعيد إسماعيل علي) في مقال له بعنوان: (تعليم للتحرير لا للتطويع)، إلى ما يقصده بمعنى التحرير عندما يتحدث عنه، ونحن بالمقابل نتفق معه على ما أشار إليه، مع توسيع للرؤية تقتضيه هذه السلسلة من المقالات حول درب التحرر، إذ ليس المراد هنا بالتحرير ما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة مما هو مرتبط بالتحرر من الاستعمار، وإنما المراد هو كل ما من شأنه أن يكبل حركة الإنسان ويقيّد انطلاقه على طريق الانعتاق الفردي من العبودية لغير الله، وكذا النهوض الحضاري للأمة، وما يرتبط به بالضرورة من المعرفة التي تقوم على التعلم والتعليم.

كذلك فإن التحرير المقصود هنا يغاير كثيرا معناه في المجالات السياسية والعسكرية، فهو تحرير من الجهل والتلكؤ والعجز ونقص المعرفة، والتأكيد على القضية المركزية فى بناء الأمم والشعوب، ألا وهى:

العمـران البـشرى، بتعبـير ابن خلـدون، الـذى يضـم تحـت جناحيـه جملـة الخطـوات التـي مـن شـأنها أن تبـث دمـاء صحـة وعافيـة في العقـول والقلـوب، بالمعرفـة والمهـارات والقيـم البانيـة، والآفـاق المتجـددة دومـا نحـو مسـتقبل أفضـل يخـص جميـع المواطنـين، بغـير اسـتبعاد ولا اسـتثناء.

وقـد فضلـت في هـذه المقـالات استخدام مصطلـح (التحـرر) بـدلا مـن مصطلـح (الحريـة)، للسـبب الـذي أشرت إليـه في بدايـة هـذا المقـال، إضافـة إلى كـون التحـرر فعـل ومسـؤولية وواجـب، عـلى الإنسـان أن يقـوم بـه خـير قيـام، بعكـس الحريـة التـي قـد تتخـذ شـعارا لا أرضيـة لـه، يدغـدغ بهـا المسـتبدون والمسـتعمرون مشـاعر الشـعوب المغلوبـة عـلى أمرهـا.

وفي الإنجيـل كلمـة، تقـول: (تعرفـوا عـلى الحـق والحـق يحرركـم)، مـاذا تعنـي هـذه الكلمـة؟ أظـن أنهـا تعنـي أن: (المعرفـة قـوة مُحـرِّرة)، وإن أهـم مـا تحررنـا الحقيقـة منـه هـو الوهـم وخـداع النفـس ورؤيـة الأشـياء عـلى غـير مـا هـي عليـه.

إن النـصر الحقيقـي الـذي افتتحـت بـه الحضـارة الإسـلامية انطلاقهـا، كان عـلى مسـتوى النفـوس، بتحريرهـا مـن حـب الدنيـا، ومـن الطموحـات الصغـيرة، كـما كان عـلى مسـتوى العقـول بتحريكهـا وتشـغيلها، وفـك إسـارها مـن أغـلال الخرافـة والوهـم والتقليـد، وفـق تعبـير د. (عبـد الكريـم بـكار). والعلـم الـذي هـو سراج العقـل يحـرر الإنسـان مـن الأوهـام، والأفـكار السـلبية، والعبوديـة للآخـر القـوي، فهـو قـادر عـلى منحـه قـوة لا نظـير لهـا،

على عكس الجهل الذي يجعل منه كائنًا تابعًا للآخرين، غير قادر على امتلاك إرادته، أو على الأقل التحرر من الأوهام التي تسيطر عليه.

لقد قال الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) في كتابه (عيون البصائر) مقولة تكتب بماء الذهب، وهي كلمة جامعة مركزة، قال فيها: (تحرير العقول أساس لتحرير الأبدان، وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا).

وإذا كبِّل هذا العقل وسُلب حريته تراجع عطاؤه، وربما صارت وظيفته في هذه الحال لا تتعدى وظيفته لدى الحيوانات، ولذا لابد من تحرير العقل وإطلاقه من كل ما يعرقل قيامه بدوره أو يعوق حركته، وماذا يعني تحرير العقل أكثر من إنقاذه من القيود التي تفرض عليه، وتحول دونه ودون عمله الحر؟ وهو ما يقوم به الدين الحق.

حتى في المجال العام، لا بد من تحرير عقل الأمة من أسر تهميش مؤسسة الشورى، التي تلزم الحاكم، باعتبار الشورى ملزمة لا معلمة، ولا ينظر بعين الاعتبار إلى المقولة المستندة إلى حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الحاكم المجتهد يخرج بأجرين إن أصاب، وبأجر واحد حالة مجانبته الصواب، فهنا الأمر لا يتعلق بمسألة صغيرة بل بمستقبل أمة، وعليه فللمسألة وجه آخر، أخطر من مصير الحاكم المجتهد، يتمثل في آثار جنايته على الأمة كلها، ووصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، التي يمدح فيها العقل الناقد المتحرر واضحة، فقد قال في الحديث

المأثور، الذي أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاواه، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإن كان مرسلا: (إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات).

وفي مجال التربية المحرِّرة لا يمكن أن نطبق القول الذي يتردد على أفواه العامة: (من علمني حرفا صرت له عبدا!)، فالتعليم تحرير وليس عبودية، والتقدير والاحترام يعد ذوقا وليس خضوعا، والغايات النبيلة لا تدرك بالوسائل المتدنية، وإن تحرير الإنسان لا يمرّ أبدا ولو لأقصر مدة باستعباده، باسم مصلحة عليا هلامية لا تعرفها إلا النخب المثقفة فقط.

يضعنا المفكر الجزائري المسلم (مالك بن نبي) على المحك عندما يدلنا على طريق التحرر والتحرير فيقول: (إن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها، هي: أنه لكي نتحرر من «أثر» هو الاستعمار، يجب أن نتحرر أولًا من (سببه) وهو القابلية للاستعمار)، وكأنه يقول لنا بلسان الحال والمقال: أخرجوا المستعمِر من نفوسكم يخرج من أرضكم، حرِّروا ضمائركم من الوثنية السياسية تتحررْ أجسادُكم من العبودية السياسية.

وهذا الكلام الذي قاله (مالك بن نبي) جسَّده على أرض الواقع المفكر التربوي البرازيلي (باولو فريري) في رفضه لحتمية العولمة الاقتصادية وهيمنتها فقال: إنني أرفض الفكرة القائلة بأننا لا يمكن أن نفعل شيئا لمواجهة الآثار الاقتصادية للعولمة، كما أرفض الانحناء أمامها بأدب، من منطلق أنه لا يمكن فعل شيء في مواجهة المقدور.

إن القبول بحتمية ما يحدث هو أعظم إسهام وعون نقدمه للقوى المهيمنة في الحرب غير المتكافئة التي يشنونها على عبيد الأرض.

وقد أبان (باولو فيري) عن فكرته عن الله كفكرة تحريرية فقال: فكرتي عن الله دائما .... أنه حاضر في التاريخ حضورا لا يمنعني من صنع التاريخ، بل يدفعني نحو إحداث تحول في العالم، يجعل من الممكن أن نخلص الإنسانية من براثن أولئك الذين يستغلون الضعفاء، و عدّ الصلاة التي يجب أن ينشغل بها المؤمنون حسب وجهة نظره، هي تلك الصلاة التي يسألون الله فيها القوة والشجاعة لمواصلة النضال بإخلاص؛ من أجل القضاء على الظلم.

وإليكم هذه الأقصوصة الرمزية التي أوردها الدكتور (زكي نجيب محمود) في أحد كتبه، والتي تشير إلى حالة الذهان الذي تعيشه أمة الإسلام، والذي يشبه في وجه من وجوهه حالة بني إسرائيل عندما طالبهم نبي الله موسى عليه السلام بمواجهة ظالميهم ومستعمريهم، فقالوا قولتهم الوقحة التي خلدها القرآن: (قالوا اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)، فضرب الله عليهم الذلة وتاهوا في الأرض أربعين سنة جزاء وفاقا عن أعمالهم وأقوالهم الشنيعة.

وتتمثل الأقصوصة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، في إمام مسجد كبير ظل يدعو الله في صلاة الجمعة قائلا: اللهم أرسل لنا (صلاح الدين) لتحرير القدس، فاستجاب الله دعوته، وخرج الناس من المسجد

فوجدوا (صلاح الدين) على حصانه، يدعوهم لتحرير بيت المقدس، لكن المصلين اعتذروا تباعا من عدم اللحاق به، لأن أحدهم عنده موعد مع طبيب الأسنان، وآخر مرتبط بحفل عيد ميلاد زوجته، وآخر عليه أن يأخذ أولاده إلى الدروس الخصوصية.... إلخ، فلم يجد (صلاح الدين) حوله أحدا، فعاد أدراجه منكسرا من حيث أتي، وفي الجمعة التالية، دعا الإمام بعد الصلاة من جديد، قائلا: اللهم أرسل لنا (صلاح الدين) لتحرير القدس، هو والناس الذين كانوا معه.

إن فهمنا للتاريخ هو مفتاح فهمنا للحاضر، وطريق بحثنا عن الحل في المستقبل، والتاريخ يخبرنا بأن احتلال بيت المقدس لم ينجح إلا بعد أن تم احتلال العواصم المحيطة به أولا، كما أن تحريره لم يكن ممكنا إلا بعد أن تم تحرير العواصم المحيطة به كذلك، لقد فتح المسلمون دمشق قبل فتح بيت المقدس، ولولا الخيانة (العبيدية) في القاهرة ما أمكن للصليبيين احتلال بيت المقدس، ثم لولا تحرير دمشق ثم القاهرة من أمراء الخيانة ما تم لصلاح الدين الأيوبي تحرير بيت المقدس، ولم يُحرر الساحل الشامي إلا لما كانت القاهرة مستقلة متحررة تحت حكم دولة المماليك، ثم لم تسقط القدس مرة أخرى إلا بعد أن تم احتلال القاهرة ودمشق وانهيار الدولة العثمانية، إن مشروع خلاص فلسطين هو ابن المشروع التحرري العربي، الذي يبدأ بتحرير الإنسان العربي أولا.

مات أحد الأثرياء وترك لعبد خدَمه طويلًا مبلغا من المال، وصك

تحرر من العبودية، فسأل أحدهم العبد: ماذا ستفعل بهذا المال؟ فقال: سأبحث عن سيد جديد وأعطيه له ليُحسن معاملتي كعبد له.

هذا حال الدنيا العجيبة، ومن يعيشون فيها، هناك من يناضلون من أجل التحرر من العبودية، وهناك من يطالبون بتحسين شروط العبودية، وهناك من يخافون من المطالبة بحريتهم، وهناك من يخافون من منح الآخرين حرياتهم، إنه الخوف، أكبر عائق أمام التحرر، خوف لدى من يطالب بالحرية، وخوف لدى من يمنحها، ومن طبيعة الحرية أنها لا تتنفس الهواء المُشبع بالخوف، ولذلك تتمنع على الراغبين فيها، حتى تجد من يطالبون بها بصدق، ومن يمنحونها بثقة.

ولو تأملنا في العمود الفقري لموضوع الإيمان في التصور الإسلامي، فسوف نجده يدور بالدرجة الأساسية حول تحرير الإنسان، فأن يؤمن المسلم بأن لا إله إلا الله، عندها تسقط في التو واللحظة فرص أن يخضع الإنسان لأيّة قوة أخرى، إلا في إطار ما رسمه المولى ـ عز وجل ـ من توجيهات في كتابه الكريم وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وتوحيد الولاء لله يسقط الولاءات الأخرى، فيتحرر الإنسان، ليكون عبدا لإله واحد فلا يتحكم في رقبته مستبد، ولا في عقله كاهن.

والإنسان عبدٌ لا محالة، إما أن يكون عبدا لله وإما أن يكون عبدا لهواه، وإما أن يكون عبدا لغيرهما، فإن تحرر من واحد أصبح عبدا لغيره، وإن عبدَ واحدا أصبح حرا من غيره، وقد خلق الله الإنسان ليكون عبدا

للخالـق وحـرا مـع المخلوقـين، فمـن عبـد الخالـق تحـرر مـن المخلـوق، ومـن عبـد المخلـوق تحـرر مـن الخالـق، كـما يظـن، وأخطـر أنـواع العبوديـة عبوديـة الهـوى، وفـق تعبـير الأسـتاذ (عبـد العزيـز الطريفـي)، فالإنسـان حينهـا يتحـرر مـن عبوديـة الأحجـار إلى عبوديـة الأفـكار، فيظـن أنـه لا يطـوف حـول صنـم، وهـو يطـوف حـول هـواه ولا يـراه، وفي هـذا إلغـاء لعقلـه وروحـه وتعطيلـل لطاقاتـه الماديـة وتجسـيد للتسـخير غـير المـشروع لإنسـانية الإنسـان.

والخطـوة الأولى لتحريـر الفـرد الأخلاقـي هـو تحريـره مـن الخـوف، وكذلـك يبـدأ تكويـن المجتمـع الأخلاقـي، حـين يبـدأ بتحريـره مـن القهـر، والقضـاء عـلى الجهـل هـو الـشرط الأسـاسي للتحـرر الدائـم، والطريـق الوحيد للرقـي والازدهـار، وفـق تأكيـد (إيدجـار فـور) مؤلـف كتـاب (تعلـم لتكـون) الـذي أصدرتـه اليونسـكو في ثمانينيـات القـرن المـاضي.

ويجب أن نعتمد ثلاث آليات نفسية ثلاثا بثلاث د. (خالص جلبي):

1. التحرر من العنف يحرر من الخوف.

2. تأكيد مفهوم السننية يحرر من الخرافة.

3. الإيمان بلا إكراه في الدين يحرر من المنازعات.

وعندمـا نسـمح للنـور الكامـن في داخلنـا بالانطـلاق نكـون وبشـكل غـير واعٍ قـد شـجعنا الآخريـن عـلى فعـل الـشيء نفسـه، وعندمـا نتحـرر مـن خوفنـا فـإن وجودنـا وبشـكلٍ تلقائـيٍّ سـيحرر الآخريـن مـن مخاوفهـم، ومفهـوم الحريـة لا يمكـن فصلـه عـن مفهـوم المسـؤولية، والمسـؤولية عـبء

شاق، وهو الثمن الذي يدفع لقاء حرية الإبداع والتجديد، وهي الرابطة التي تربط المرء بالعمل المضطلع به، والحرية مُلِحَّةٌ في مطالبها، فعندما ينتهي وقت الكلام ويحين وقت القرار، ويتعين البت في القضايا المطروحة والاختيار من بينها، كما يصف ذلك (جان ماري بيلت)، يعود إلى الظهور إغراء الهروب الغامض، والرغبة المكبوتة في الانضمام إلى الصفوف الراكدة، وفي التخفي أو التحلل في آلاف أشكال الحرية الزائفة التي ينزع مجتمعنا إلى محاولة إقناعنا بأنها لا تتمثل إلا في عمل كل إنسان على هواه، وهو ما وقف أمامه المفكر الجزائري (مالك بن نبي) بكل حسمٍ، وأطلق عبارته المشورة في وجه طالبي الحرية دون تحمل تبعاتها، فقال: «إننا نريد حقوقنا (حرياتنا) ولو مع جهلنا وعرينا ووسخنا»!!

وقد أورد الدكتور (زكي نجيب محمود) مثالا للحرية المسؤولة والحرية الزائفة، فقال: «قارن بين طفل أمامه ورقة وفي يده قلم، ظفر بهما بعد بكاء عنيد، قارنه بفنان أمامه لوحة وألوان وفي يده الفرشاة، فالطفل حر في أن يخط بالقلم ما شاء أن يخطه على الورقة، والفنان حر في إقامة بنائه اللوني على اللوحة، لكن ما أبعد الفرق بين حرية وحرية! لقد أزيلت الموانع التي كانت تحول دون حصول الطفل على ورقة وقلم، فلما بلغ مراده وكان حرًّا، انطلقت تلك الحرية المجنونة (تشخبط) الخطوط على الورقة بلا هدف، وأما الفنان العارف بأسرار فنه، فقد استطاع بحريته المقيدة بقواعد الفن وأصوله، أن يبدع ما قد يضاف إلى كنوز الجمال».

إن هدفنا من تلك الحريات، كادت تنحصر في الجانب السلبي وحده، بمعنى أن تكون المطالبة بالحرية مقصورة على التحرر من قيود تكبلنا في هذا الميدان أو ذاك، بعبارةٍ أخرى أوشكت كل جهودنا المبذولة طلبًا للحرية، أن تنحصر في فكّ الأغلال وتحطيم القيود، وهو أمرٌ واجبٌ ومطلوبٌ، لكن الأغلال كلها إذا فكت، والقيود جميعها إذا حطمت، يبقى بعد ذلك أهم جانب من جوانب الحرية، وهو الجانب الإيجابي، الذي يتصل بقدرة الإنسان على أداء عمل معين، إذ ترتبط تلك القدرة ارتباطا وثيقا بمقدار ما عند العامل من معرفة بما يريد أن يؤديه.

وقبل البدء بقيم الحرية والعدالة وما إليهما مما نطالب به من حقوق الإنسان، لا بد أولا أن نعدَّ نفوس الناس إعدادا يهيئهم للإصرار على أن يكونوا أحرارا ومنصفين، إذ ماذا يجدي أن تقدم للناس حقوقهم الإنسانية جاهزةً معطرةً مبخرةً، كما يقولون، إذا كانوا في أعماقهم لا يريدونها؟

إن حق الحرية بمعناها الإيجابي المنتج، مقصورٌ على أولئك الذين يعلمون، أو هكذا تقضي الحكمة بأن يكون، الفرق بعيد بين التحرر والحرية، فالتحرر هو تحطيم القيود، والحرية هي العمل الإيجابي الحر، الذي يضطلع به من تحطمت قيوده.

ويشير الدكتور (زكي نجيب) إلى كون الحرية تُفهم من جانبها السلبي وحده، إذ تفهم بمعنى التحرر من القيود، ومن القيود السياسية

بصفةٍ خاصةٍ، ومثل هذا التحرر واجبٌ محتومٌ، لكنه إذا اكتفى به لما كسب الإنسان من حريته شيئًا إلا الشكل الخارجي، فبعد أن كان القيد يغلُّ قدميه، أزيل القيد، إلا أن القدمين ما زالتا عاجزتين عن السير، لماذا؟ لأن السير يريد هدفًا يوصل إليه، ولأن الوصول إليه يتطلب معرفةً بالوسائل فإذا كان لا هدف هناك، أو كان هنالك الهدف ولا معرفة يستعان بها على خلق الوسائل المحققة لذلك الهدف، إذن فيا خيبة الرجاء!

لقد قال الحكيم موضحًا ومحذرًا: لا يمكن للمرء أن يتحرر من العمل بعدم القيام به، ولا يمكنه الحصول على هذه الحرية أيضا بمجرد الامتناع عنه، ولا يعني شيئًا أن تعرف كيف تتحرر، فالمهم هو أن تعرف ما بإمكانك فعله بحريتك.

وقد أدى انبهارنا بالغرب إلى أننا أصبحنا غير قادرين على رؤيته رؤية نقدية، مع العلم أن التوصل إلى مثل هذه الرؤية النقدية خطوة أساسية نحو التحرر من التبعية الإدراكية، وقد وجدت الشعوب المستضعفة نفسها أمام مفارقة حادة: إذ كيف تستعير من الغرب المتقدم نفسه ما يمكنها من التحرر من هيمنته، وكيف تنتفع بمنجزات حضارته دون أن تدفع ثمن ذلك من حريتها واستقلالها؟ وهذا ما هو حاصل بكل أسف. «وأنَّى لنا أن نتحرر من الكراهية ولم يحرم القانون بعد شن الحروب»، كما قال ذلك بكل أسف (جان ماري بيلت)، صاحب كتاب (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة).

ومن هنا يتبين لنا أن الذين عملوا على تحرير غرائزنا، مدعين أنهم يحضّروننا بعملهم هذا- يكشفون تمامًا عن جهلهم: فهم يعرفون كلمة: (حضارة)، وربما كان مصدر معرفتهم لهذه الكلمة معجم لغوي، أو صحيفة سيارة، على حين يجهلون تمامًا ماذا تعني في الواقع.

والغرب يحاول أن يحرر المرأة، أي أنه بعمله هذا يحاول أن يزيد من تشظي المجتمع وتحويله إلى أفراد، لأن الوحدة التحليلية في المجتمع الغربي هي (الفرد)، في حين إن الوحدة التحليلية الأساسية في التصور الإسلامي هي (الأسرة)، والمجتمع له حقوق كما أن للأفراد حقوقا، بل إن حقوق المجتمع تسبق حقوق الأفراد، وفق تعبير الدكتور (عبد الوهاب المسيري).

إن تحرير المرأة يكون بالإسلام، وليس من الإسلام، والطائرة لم تصنع مادتها من خمار المرأة، والطاقة لم تنقدح شرارتها باحتكاك الرجل بالمرأة، إن بوصلة الحضارة مزيفة، قلدنا الصانع وتركنا المصنع، وفق تعبير الشيخ الطريفي، ولهذا كانت أول عقوبة للإنسان بعد معصيته هي التعري، كما قال تعالى: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} (طه: 121 ـ 122)، وإذا انتكست الفطرة تحولت (العقوبات) إلى (حضارات)، وكل ما يثير اندفاع الإنسان نحو الأهواء النفسية، يمنع ارتقاء الإنسان وتحرره.

إن انفلات الحرية ليس تقدما إلى الإنسانية كما يظن البعض، بل يعد تأخرًا إلى البهيمية، حسب وصف الشيخ الطريفي، لأن الأفعال تمدح بضبطها لا بانفلاتها، فالانفعالات لا تحتاج للعقل بل تحتاج لتعطيله، والتحرر (مِن) يختلف اختلافا شاسعا عن الحرية (في) والتحرر (عن)، والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل يمكن أن ندخل المستقبل ومعنا ماضينا، نحمله كهوية وذات تحررنا من اللحظة المباشرة، وتحفظ لنا خصوصيتنا وتساعدنا على أن نجد اتجاهنا، لا كعبء يثقل كاهلنا؟

إن النظر الصحيح إلى التاريخ يفيدنا من جانبين كبيرين: فهو يحررنا من عقدة الخوف من كشف الخطأ في تاريخ المسلمين، كما يحررنا من عقدة الخوف من كشف الصواب في تاريخ الآخرين، وإن عدم بخس الناس أشياءهم مبدأ قرآني، كما إن العدل وألا يجرمن شنآن قوم على ألا نعدل مبدأ قرآني أيضًا.

إن الحرية من أثمن ما جاء به الإسلام، فالتوحيد قرين التحرير، وشهادة (أن لا إله إلا الله) إعلان عن ميلاد الإنسان الحر في هذا الكون الذي يسجد لله وحده، ويخشى الله وحده، ومن هذا المنطلق فإن الاستبداد يصبح قرين الشرك، لأنه يحيل الناس عبيدا لآلهة من البشر، ويدفعهم إلى السجود لغير الله! والتوحيد في جوهرة وثيقة لتحرير الإنسان من العبودية للإنسان.

إن مبدأ (التوحيد) هو القاعدة العظمى لتحرر الإنسان، ذلك أنه

في الوقت الذي يعلن فيه الإنسان أن لا إله إلا الله، فهذا يعني التحرر من أي سلطة إلا سلطة الخالق ـ عز وجل ـ، وهذا التحرير هو الأرض الخصبة، والباب الملكي الموصل لأي تربية وتنشئة على الصراط المستقيم.

إن الحرية في حقيقتها لازمة من لوازم التوحيد وضرورة من ضرورات تنمية التديُّن، ولا بد من أن يُهيئ لها المسلمون؛ لأن المسلمين لم يتهيئوا لهذا القدر من الحرية، فقد عهدوا في تاريخهم كله - ولا أقول في البناء السياسي وحده بل في البناء الاجتماعي أيضًا - قدرًا كثيرًا من التعبد والتذلل للسلطات البشرية، فكان المفتي دائمًا يلقي بالفتوى ولا يُناقش أبدًا، ولا دور للعامي إلا أن يتلقى وينفذ دون أن يُراجع ويحاور، وكذلك في طوائفنا الدينية تجد الأتباع كأنهم لا شيء، عطّلوا الدين كله وأصبحوا يتحركون بإشارة من إصبع القائد، ولذا فقد ترسخت عندنا تقاليد اجتماعية وفكرية وسياسية تكرس بعض الممارسات المخالفة لقيمنا.

وتحرير إرادة الفرد تكون بتحريره أيضا من كل أنواع التسلطات (المشيخية والسلطوية والصوفية والحزبية والطائفية، ...)، فالتسلط الصوفي (مثلا)، الذي يمارس على الإنسان من شيوخ الطرق، حيث إن نظام بعض الطرق الصوفية هو نظام من شأنه مصادرة حرية الفرد بإذابته في شخصية الشيخ فيصبح منقادا له انقيادا أعمى، تمحى فيه إرادته الحرة أو تكاد، (كالميت بين يدي مغسله)، فينشأ على ذلك فردًا عاطلًا، تقتل فيه المبادرة وتنمو فيه الاستكانة والخضوع، وقل مثل ذلك في التسلطات

الأخـرى.

وقـد سـبق وأشرنـا في (درب التوحيـد) عـلى مركزيـة التوحيـد ومحوريتـه في التصـور الإسـلامي، كونـه مـن القيـم المركزيـة العليـا في الرؤيـة الإسـلامية، والـذي يصبـغ بصبغتـه ويلـون بلونـه كل القيـم الإسـلامية الأخـرى، وكلـما حقـق الإنسـان أسـس التوحيـد في نفسـه، انعكـس ذلـك عـلى كل تصوراتـه الفكريـة، وشـمل كل مواقفـه الحياتيـة، وتـأتي قيمـة الحريـة في هـذا السـياق وفي إطـار هـذا التصـور، لتؤكـد لنـا أن الحريـة أصـل في خِلقـة الإنسـان، وأن الاسـتعباد والـرق دخيـل عـلى هـذا الأصـل المتـين، وتلـك كانـت الصيحـة التـي جـاءت مـن عمـق التاريـخ ورددهـا الفـاروق عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنـه، موجهـا أنوارهـا لمـن حـاول سـلب حريـة إنسـان مـا في لحظـة طيـش وضعـف، فقـال: (متـى اسـتعبدتم النـاس وقـد ولدتهـم أمهاتهـم أحـرارا).

إن صناعـة المفكـر الحـر تعـد إحـدى الصناعـات الثقيلـة في حيـاة الأمـم، فالمفكـر الحـر يكـون مفكـرًا حقيقيًّـا بمقـدار تحـرره مـن وطـأة الثقافـات التسـلطية والشـعبية التـي يتغـذى عليهـا، ويكـون مفكـرًا عـلى مقـدار مـده نظـره خـارج الصنـدوق الـذي ولـد فيـه، وعـلى مقـدار تحكيـم الأصـول الشرعيـة والمبـادئ الأخلاقيـة، وتحكيـم المنطـق السـليم في المفاهيـم والتقاليـد السـائدة، أمـا مـا يعتقـده بعـض النـاس مـن أن انتماءهـم الدينـي يحررهـم مـن مسـؤولية التفكـير، فهـو نـوع مـن الوهـم الـكاذب، والعقليـة السـاذجة.

والتربيـة بالحـرف الواحـد، وفي أدق مضامينهـا، هـي تحريـر الإنسـان من

قيود التابعية المستلبة للشخصية الإنسانية، وانعتاقه من تحكم الآخرين، واطلاعه على مواهبه الكامنة فيه. فالتربية بحسب هذا التعريف، (فتح متواصل)، فتح وجود الذات، والتحرر من القيود المكبلة المفروضة من قبل الكبار بهدف تحقيق انصياعه التام وانقياده اللاإرادي بحجة تأديب الأطفال وتربيتهم، وهذا لا يعني ترك الحبل على الغارب، الذي سيؤدي بالطبع إلى الحرية المشوّهة، بل يعني أن تكون تربية الأجيال تربيةً للتحرير، والفرق واضح بين مسؤولية المربين الذين يأخذون بهذا النهج في تربيتهم، وبين من يستخدمون سلطاتهم التربوية في الاستعباد، فالتربية خدمة تحرير، وليست تسلطا استعباديا.

ولا خلاف على أنَّ التربية هي وسيلة لتحقيق إنسانية الإنسان، وتمكينه من التحرُّر من القيود التي يفرضها الجهل والعجز، ولذلك فإنَّ أيَّ نجاح للتعليم رَهْنٌ بتمكين المُتعلِّمين من اكتساب الوعي بذاتهم، وتطلُّعهم إلى حمل الأمانة، وقد نطق القرآن الكريم بهذه الحقيقة عندما أعلن عن تنصيب آدم خليفةً في الأرض، ثمَّ علَّمه الأسماء التي تُعِينه على القيام بهذه الأمانة، ونطق القرآن الكريم بهذه الحقيقة كذلك عندما اختار الله سبحانه أنْ يكون مبدأ الوحي إلى خاتم الأنبياء ـ صلى الله عليه وسلم ـ آيات القراءة والعلم والقلم، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق: 1 إلى 5).

ومن أولى خطوات التنمية العقلية، تحرير العقل المسلم من الجمود والتقليد الأعمى، وتحريره من الغرور، وتحريره من الهوى، تحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف، سواء أكان هذا السلف هو سلفنا نحن، أم سلف الحضارة الغربية، والنهضة في جوهرها هي وعي الإنسان، وإطلاق ممكناته، وتحرير إراداته.

والخيارات الحقيقية تحررنا من عبودية الموضة، وتفك أسر قلوبنا من كل ما يلمع حتى وإن كان ذهبا، وتعيدنا إلى الزمن الذي كان الشيء الواحد فيه يساوي كل الأشياء، والإبداع ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحتميات الطبيعة ومقولات التاريخ، والمال في أيدينا، كما يقول الدكتور (عبد الكريم بكار): «هو وسيلة تحرير لنا من ذل الحاجة، تلك الحاجة التي تعدّ ضربا من العبودية، ووسيلة تحرير من عالم الضرورات، لكن مواصلة الرحلة لاكتساب المزيد منه دون أي حدود قد تحوله إلى شيء يستعبدنا وينهكنا»، وقد فصَّل الله نهاية حرية الإنسان، ولم يفصِّل بدايتها، لأن الإنسان يعرف كيف يبدأ حريته إذا وعى، ولكنه لا يعرف كيف ينتهي بها، ونزاع البشر بالنهايات لا بالبدايات.

إن كثيرًا من الناس يظنون أن الحرية هي التخلص من تبعية الناس، ولكنهم بالمقابل يقعون في عبودية الهوى، وهي أم العبودية، كمن يفك قيد يده ويضعه في عنقه، ويظن الحرية عندئذ هي أن يصفق بيده، كما أن كثيرا من الناس غالبا ما يظنون أنهم انعتقوا من تقديس الأشخاص، ولكنهم

بالمقابل يقعون في تقديس هواهم، وهم بهذا يبقون عبيدا، وإنما اختلف السيد الذي يمسك بخطامهم، كما عبّر عن ذلك الشيخ (عبد العزيز الطريفي).

وبناء على ما سبق طرحه في المقالات السابقة من درب التحرر، فإن الواجب علينا كآباء ومربين ومعلمين وأساتذة جامعات أن نبذل قصارى جهودنا حتى لا يتعود أبناؤنا أو من نربيهم ونعلمهم على حياة الذل والعبودية لأنهم سيعتادون عليها، ولن يشعروا بقيمة العزة والحرية والكرامة الشخصية، فالظهر إذا اعتاد الانحناء شق عليه الاعتدال، والنفس إذا اعتادت العبودية شقت عليها الحرية.

ونختم هذا الدرب (درب التحرر)، بإشارة يمكن أن نستقيها من قصة موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، عندما هيأ الله له أن يتربى في بيت فرعون، ذلك الطاغية المجرم المتأله، فتربى نبي الله موسى في هذا البيت تربية الحرية والكرامة والعزة، تلك التربية التي لم يكن ليجدها لو تربى مع قومه بني إسرائيل، الذين اعتادوا على العبودية والذل، فكانت بداية تحرير بني إسرائيل من طغيان فرعون وجبروته، هو تربية إنسان حر لا يحمل نفسية العبيد، التي تطبع عليها بنو إسرائيل، الذين عانى منهم نبي الله موسى أشد المعاناة فيما بعد، وهو يحاول أن يحررهم جسديًّا وعقليًّا ونفسيًّا وروحيًّا، ولكن لا حياة لمن تنادي، والقرآن يحدثنا عن سنين التيه التي استحقها بنو إسرائيل لأنهم خالفوا نبيهم، بسبب

أنهم قد تمرغوا في وحل العبودية إلى القاع، واستمرؤوا الذل حتى الثمالة، ولا حل لهم إلا التيه أربعين سنة، فمن كان مربّاه بالذل والمهانة فمن الصعب إخراجه منه، ولكن ذلك ليس مستحيلا، والحل الأسهل والأسلم للأجيال التي نربيهم أن نحميهم من السقوط في مستنقع العبودية والذل، بل علينا أن نغرس في نفوسهم وعقولهم أشواق الحرية، وسيكونون من روادها وصناعها حاضرا ومستقبلا.

دعونا نبدأ هذا الدرب (درب الثبات) - وهو آخر دروب الترقي - من الجزء الثاني من العنوان (أنبته ثباته)، حيث يذكرون أن (زُفَر) كان من أنبغ تلامذة الإمام أبي حنيفة النعمان، وأبرعهم في القياس، وأن قدرات زميله (أبو يوسف) كانت أقل منه بكثير، وعند النظر إلى المكانة الفقهية لكل منهما نجد أن الفارق بينهما شاسع، ويذكرون أيضا أن أبا حنيفة قال لأبي يوسف: «أنبتك ثباتك»، فمع مهارة (زُفَر) إلا أن ثبات صاحبه (أبو يوسف) وإصراره واستمراره صنع منه عَلَما بارزا، وصيّره من مقدَمي تلاميذ الإمام أبي حنيفة النعمان.

واليابانيون لهم في هذا المضمار دأب عجيب، مقارنة بغيرهم من الشعوب، فهم يركزون على مبدأ الجد والاجتهاد (الثبات والإصرار والاستمرار وتكرار المحاولة)، أهم من تركيزهم على الموهبة والذكاء الفطري، على عكس ما هو معروف في أمريكا وكثير من الدول، ويتضح ذلك من كثرة استخدامهم كثيرا للكلمات التي تدل على الاجتهاد والمثابرة باللغة اليابانية (سأبذل قصارى جهدي)، (سأعمل بكل جدية)، والتركيز والثبات لمن يدرك قيمتهما، سر من أسرار الإنجاز والنجاح والسعادة، والإنسان الذي يريد أن يحقق كل شيء، هو في الغالب لن يحقق شيئا.

وهـذا هـو حـال مـن يصابـون بالملـل، فـلا يثبتـون عـلى حـال، ولا يتمسـكون بمبـدأ ولا موقـف، ولا يمـدون جذورهـم في تخصـص، بـل تراهـم يتنقلـون مـن وضـعٍ إلى وضـع، ومـن حـالٍ إلى حـال، ومـن موقـفٍ إلى آخـر، ومـن مبـدأٍ إلى آخـر، ومـن تخصـصٍ إلى آخـر، فـلا يقـر لهـم قـرار ولا تهـدأ لهـم نفسـية، وهـذا يضيّـع جهودهـم ويسـتهلك طاقتهـم، ويسـتنفد مخزونهـم النفـسي، ليجـدوا أنفسـهم في نهايـة المطـاف عـلى هامـش الحيـاة، لم يحققـوا شـيئا، ولم يسـجلوا موقفـا، ولم يبرعـوا في تخصـص، ولـو ركـزوا جهدهـم وطاقتهـم في شيء واحـد لتمكنـوا مـن وضـع بصمتهـم، وأحدثـوا في حياتهـم وحيـاة غيرهـم الكثـير والكثـير.

والمتأمـل في قولـه تعـالى: {أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَـلًا كَلِمَةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَـا ثَابِـتٌ وَفَرْعُهَـا فِي السَّـمَاءِ، تُـؤْتِي أُكُلَهَـا كُلَّ حِـينٍ بِـإِذْنِ رَبِّهَـا وَيَـضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَـالَ لِلنَّـاسِ لَعَلَّهُـمْ يَتَذَكَّـرُونَ} (إبراهيـم: 24 ـ 25)، يجـد مـن خـلال منطـوق هـذه الآيـة أن الشـجرة الطيبـة تتصـف بثـلاث صفـات أساسـية: ثبـات أصلهـا وعمـق جذورهـا، ثـم ذهـاب فروعهـا وأفنانهـا في السـماء، ثـم نفعهـا الدائـم للخلـق باسـتمرار أُكُلهـا وثمارهـا، وكذلـك الكلمـة الطيبـة البانيـة، هـي كلمـة ذات عمـق وثبـات، وذات فـروع ممتـدة وظِـلال وارفـة، وهـي مثمـرة مثـل أختهـا الشـجرة، وعمـق وثبـات الشـجرة والكلمـة هـو مـن جعلهـا بهـذا السـمو والنفـع.

والشـجرة الطيبـة قـد يكـون فيهـا، أو يلتصـق بهـا - في بعـض الأحيـان

- فـروعٌ خبيثـةٌ، ولكـن هـذا لـن يخرجهـا عـن كونهـا شـجرة طيبـة (أصلهـا ثابـت وفرعهـا في السـماء تـؤتي أكلهـا كل حـين بـإذن ربهـا)، والشـجرة الخبيثـة قـد يكـون فيهـا، أو يلتصـق بهـا فـروع طيبـة، ولكـن هـذا لـن يخرجهـا عـن كونهـا شـجرة خبيثـة، (اجتثـت مـن فـوق الأرض مـا لهـا مـن قـرار).

وتأكيـد الإسـلام عـلى ثبـات الفطـرة وخيريتهـا، (فطـرة الله التـي فطـر النـاس عليهـا)، (صبغـة الله ومـن أحسـن مـن الله صبغـة)، يجعلهـا هـي السـابقة عـلى الانتـماءات الدينيـة والثقافيـة والحضاريـة، فليسـت الثقافـات والحضـارات مـن تصنـع فطـرة الإنسـان وتحـدد سـلوكه وطرائـق تفكـيره، كـما تقـول بذلـك بعـض النظريـات الغربيـة، وإنـما فطرتـه هـي المعيـار الـذي يمكّنـه مـن الحكـم عـلى تلـك الثقافـات والحضـارات، فـما وافقهـا كان موافقـا للإنسـان وسـببا لسـعادته ومـا خالفهـا كان مـن أسـباب شـقائه، والإنسـان مخـيَّر بـين البقـاء عليـه أو الانفـكاك عنـه، وفـق تأكيـد د. (جعفـر شـيخ إدريـس) عـلى ذلـك.

والقيـم التـي تتغـير باسـتمرار ليسـت بقيـم، كـما يصفهـا الدكتـور (عبـد الوهـاب المسـيري)، لأن القيـم الإنسـانية والأخلاقيـة لا بـد أن تتسـم بقـدرٍ عـالٍ مـن الثبـات لأنهـا تسـتند إلى إنسـانيتنا المشـتركة، وإن تغـيرت لم تصبـح قيـما بقـدر مـا تصبـح آليـات للتعامـل مـع مـا ينشـأ في الواقـع، وهـذه هـي إشـكالية الحداثـة في الإطـار المـادي، لكونهـا سـقطت في النسـبية، لـذا لم يعـد لهـا مرجعيـة، وأصيبـت بحالـة مـن السـيولة الفلسـفية، نزعـت عـن الإنسـان إنسـانيته، وسـيطرت عليـه وسـائل الإعـلام والاحتـكارات

الرأسمالية، وهي نفس النتيجة التي توصل إليها (زيجمونت باومان)، في كتابه (الحداثة السائلة)، ففي النظام العالمي الجديد، لم يعد هناك ثبات لأي شيء، وأصبحت السيولة التي يطلقون عليها (المرونة) هي الثبات والثابت الوحيد، والزوال هو الدوام الوحيد، والسيولة هي الصلابة الوحيدة، وباختصار شديد: صار اللايقين هو اليقين الوحيد. وهذا هو ما يجعل كل شيء في عالمنا المعاصر سائلا ليس له ثبات ولا يقين، وهذا يتعارض مع الفطرة الإنسانية، كما يتعارض مع القيم الإسلامية التي تنحو منحى الثبات لا منحى السيولة والنسبية، كما هو حاصل في القيم الغربية.

ويحدثنا د.(عمر فروخ) في سيرته الذاتية، التي أسماها (غبار السنين)، أن في طبعه أمرين لا يعرف كيف جاءا إليه، وأنه يحمد الله على وجودهما فيه، وهما: «الوضوح في العمل والثبات في المسير»، وهذا يقودنا إلى القول بأنه إذا كان وعي الإنسان عُرضة للكثير من التغير، فإن جوهره أقرب إلى أن يكون ثابتا، والقلب الذي يثبته الله فلا ثبات له من دونه.

والمؤمن الصادق في حالة محاسبة للذات، حتى يثبت ويستمر في طريقه على منهج الله، يمكن أن نسمي ذلك نقدا ذاتيا أو توبة نصوحا، والمؤمن باحث عن الكمال المستطاع في حقه، فهو يحاسب نفسه على الذنب ليتجاوزه ويضع بدلا عنه غِراس الخير، ويحاسب نفسه على التقصير كي يتجاوزه ثم يبني بعد ذلك مداميك الثبات، فهو في حالة ترقٍّ مستمرٍّ، كلما أوصلته التوبة النصوح أو المحاسبة أو النقد الذاتي إلى مرتبة تاقت

نفسه إلى المرتبة التي تليها، حتى يلقى الله وقد وضع بصمته التي تبيِّض وجهه بين يدي ربه.

ولهذا لا نستطيع الجزم بكونها (أي التوبة) سببا أو نتيجة لحالة الثبات عند الإنسان، ولكنها حالة ترافق الإنسان طوال حياته، وفي كل حالاته، بها يترقى، فالله (يحب التوابين)، وتأمل كلمة (توّاب وليس تائب) لتدلك على استمرارية التوبة ودوامها وثباتها ما دام في الإنسان نَفَس يتردد.

وكما أن (التوبة) دعوة للفرد فهي دعوة للمجتمع لكي يحصل على الفلاح (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)، وتأمل لفظ (جميعا) تجد أن وراءها حركة مجتمع وتوجه أمة ونهضة حضارة، والطلب للمؤمنين وليس لغيرهم، وفي هذا ما فيه من الأهمية التي يمكن أن تقوم بها التوبة النصوح في حياة الأمم كما هي في حياة الأفراد.

والقلوب إن ثبتت، ثبت تبعًا لها البدن، كما يؤكد على ذلك الشيخ (عبدالعزيز الطريفي)، ويضرب مثلا لذلك بالجنود الذين يثبتون لثبات قائدهم، فمن الضروري (وجوبًا) ثبات أمير الجند، فبثباته يثبت أتباعه، ومن خوفه يخافون، لأنه يعلم من العدو ما لا يعلمون، ويعلم من قوتهم ما لا يعلمون، فالجندي يعلم قوة نفسه، لكنه لا يعلم قوة جميع الجيش، ولهذا ثبَّت الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة بدر الكبرى بتقليل عدد المشركين في عينيه ليظهر على وجهه البشر والثبات والفرح، فلا تغلبه الشفقة على نفوس المؤمنين أن يستأصلوا أو يبادوا أو يغلبوا أو

يـؤسروا.

وكأن الشـدائد في حيـاة الأفـراد والجماعـات ريـاح عاتيـة تقتلـع كل مـا لم يكـن ثابتًـا في الأرض، وتهـز الفـروع لتتسـاقط الأوراق الذابلـة، وشـبيها بهـا الأفـكار والأشـخاص.

والمتأمـل في حـال الجيـل الـذي يعيـش في عصرنـا هـذا، يجـده جيـلا هشًّـا، لكونـه نشـأ عـلى تربيـةٍ هشـةٍ، في مقابـل هجمـةٍ معولمـةٍ لا تبقـي ولا تـذر، وقـد أطلـق أحدهـم عـلى هـذا الجيـل اسـم (الجيـل الزجاجـي)، فهـو سـهل الكسـر وصعـب الإعـادة، وإذا كانـت الهزيمـة النفسـية تـورث الـتردد في الحـق، والثقـة بهـا (بالنفـس وحدهـا) تـورث الثبـات عـلى الباطـل، فـإن اجتـماع الحـق والثقـة بـالله أولا وبالنفـس ثانيـا يعـدّ ثباتـا لا يهـزم.

والشـجاعة ليسـت بالفصاحـة، والإيـمان ليـس بحفـظ النصـوص، والثبـات ليـس بالدعـاوى، إنـه الواقـع الكاشـف لحقيقـة المسـتور في خفايـا الصـدور، أمـا غـير ذلـك فـلا تضيّـع وقتـك، قـال تعـالى: {هُنَالِـكَ ابْتُـلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا زِلْـزَالًا شَـدِيدًا} (الأحـزاب: 11) هنالـك! كأن الآيـات قـد وقفـت عـلى التلـة القريبـة منهـم لتشـير إليهـم مـن بعيـد، هنالـك ابتـلي المؤمنـون، إذن هـم مؤمنـون عـلى الرغـم مـن زيـغ أبصارهـم وبلـوغ قلوبهـم الحناجـر وظنهـم بـالله الظنونـا، هـم مؤمنـون لأن مـا صـدر عنهـم لم يكـن شـكًّا أو اعتراضـا بـل تشـوفا لنـصرة الديـن الـذي آمنـوا بـه، والرسـالة التـي أحبوهـا وضحـوا مـن أجلهـا، أحبوهـا مـن كل قلوبهـم حتـى أضحـت أحـب إليهـم

مـن أنفسـهم وأموالهـم، (وزلزلـوا زلـزالا شـديدا) لقـد زلزلهـم الله، الله الـذي أحبهـم وأحبـوه، زلزلهـم لـيرى مـدى ثبـات قلوبهـم عـلى أرض محبتـه. د. (فايـز الكنـدري).

ووضـوح الإنسـان يتضـح أكثـر مـن خـلال ثباتـه ويقينـه، وشـهرته تبدو مـن خـلال صلابتـه وإيمانـه، ويرجـع نفـع ذلـك وبركتـه بالخـير عليـه أولًا، إذا بهـذه الصفـات يصبـح بعيـدًا عـن أطـماع الطامعـين، ومراودتهـم ومحـاولات كسـبهم إيـاه، عـلى خـلاف التعامـل مـع ذلـك الـذي يتصـوره النـاس هـش البنيـان، ضعيـف المواقـف، مـتردد الإرادة، رخـو العزيمـة، باهـت الـولاء، فإنـه يمثـل لـدى الأطـراف الأخـرى صيـدا سـمينا، وغنيمـة سـهلة.

والنفـوس جبلـت عـلى حـب الثبـات وعـدم الـتردد، كـما يصفها الشـيخ (عبدالعزيـز الطريفـي)، حتـى لا توصـف بالضعـف والتبعية، والنفـوس المتكبرة لا تفـرق بـين التحـول مـن الحـق إلى الباطل، وبـين التحول مـن الباطـل إلى الحق، فتثبـت عـلى الباطـل كِـبرا، بـل ربـما تثبـت بعـض النفـوس المتكـبرة عـلى الحـق لا لأنـه الحـق، بـل لـذات الثبـات، فـلا تحـب أن توصـف بالتحـول والانتكاسـة، فتصـبر وتتجلـد وتنـصر الديـن في الدنيـا، وتكـبّ في النـار في الآخـرة، فالطبائـع لهـا أثـر في الثبـات كأثـر الإيـمان فيـه، فالنفـوس المتكـبرة يهمهـا الثبـات ولـو على باطـل، والنفـوس المؤمنـة يهمهـا الحـق ولـو تحولـت، ومتـى كان الإيـمان أقـوى مـن الطبائـع، تحكَّـم فيهـا، ومتـى كانـت الطبائـع أقـوى مـن الإيـمان، تحكمـت فيـه.

والمتكبرون إن خرجوا من الحق، منعتهم نفوسهم من الرجوع إليه بدعوى الثبات، وبعض النفوس تقوى على التحول مرة، ولكنها تستثقل التحول مرتين، ومنها ما هي ضعيفة تقبل التحول مرات ومرات.

وكثير من الأفكار يُدرِك أهلها من أين تبدأ أفكارهم بهم ولكنهم لا يدركون إلى أي شيء تنتهي، وبقدر بُعْد النظر في طول الطريق يكون الثبات عليه، وأضر شيء على العالِم نقص العبادة، وأضر شيء على العابد نقص العلم، فالعلم والعبادة أوتاد الثبات، وأعظم أسباب الثبات عبادة السر، وأعظم أسباب الانتكاسة ذنوب الخلوات،وقد أمر الله بتلاوة القرآن، وقرن ذلك بالأمر بالصلاة، للدلالة على أن العبادة مع العلم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وأن من اجتمع علمه بالقرآن بعبادته، اكتملت فيه أركان الثبات على الحق، وذلك لأن العلم والعبادة كالقدمين لا يقام إلا عليهما، فالعلم يزيل الشبهات، والعبادة تزيل الشهوات، وفق تشبيه الشيخ الطريفي، والثبات على الهداية يحتاج إلى وعي وعمل، واتصال بالله دائم.

ودعوني أنقل لكم مشاعر أحد من قادهم ثباتهم واستمرارهم في البحث عن الحقيقة، فحطّوا رحالهم في دوحة الإيمان، إنه المسلم والمفكر الأمريكي (جيفري لانج)، الذي قال: «عندما تضع يديك وقدميك ووجهك وتسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رُفِعتَ إلى الجنة، لتتنفس من هوائها، وتشتم تربتها، وتتنشق شذى عبيرها، وكأنك توشك

أن تُرفَع عن الأرض وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم، فهذه اللحظات من الألفة المقدسة تخلق في المتعبد شوقا عارما كي يكون قريبا من الله، وتصبح الآخرة هدفه الأساس من خلال عيشه في هذه الحياة ونصَبه فيها».

يا صاحبي: الثبات لا يعني الجمود، ثم أنت لا تتبع قيمك لأنك تقدسها في حد ذاتها، ولكن لأنك تعتقد أنها دربك إلى الحقيقة، فإذا اكتشفت أنك في حاجة إلى تصحيح دربك أو تغييره كليا حتى تصل إلى ما تبغي أن تصل إليه، إذا اكتشفت هذا الأمر ولم تفعل، فإن ذلك هو الخيانة الواضحة والصريحة، وهنا تكون الفتنة قد نالت منك بحق، هكذا ينصح (أسعد طه) صديقه، وكلنا في حاجة إلى مثل هذه النصيحة.

ثم من قال إن الإنسان لا يختار ميتته؟! إننا نختار الميتة حين نختار نوع الحياة، نختار الطريق ونقطعه لنهايته، قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان: 34)، والآية تؤكد ذلك، فالدراية هي العلم المسبق، قد يجهل الإنسان المكان على وجه التحديد، ولكن خياره يسوقه إليه في ثبات، والآية الثانية، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (آل عمران: 102)، هذا الآية تحمِّل الإنسان مسؤولية اختيار (كيف) يموت، أما (متى) يموت، أو (أين) يموت؟ فهذا الأمر مردّه إلى الله ـ جل في علاه ـ، كما وضحته الآية الأولى.

إن فهم الوجود على أنه كمٌّ ثابت يمثل نصف الحقيقة، ذلك أن الحياة تسبح بين السكون والحركة، بين الثبات والتطور، بين الوجود والصيرورة، ومن الخطأ الكبير أن نتطور فيما حقه الثبات، ونثبت فيما حقه التطور.

وإن الحقائق لتزداد رسوخًا من خلال نموها، وليس من خلال جمودها، ونموها يأتي من خلال إبراز وجهات النظر وتعددية الرؤية حولها، كما يصبح لمبدأ (ختم الرسالة) على صاحبها أفضل الصلاة والسلام معنى جديدًا، حيث لا يعني الختم الجمود أو توقف عجلة التقدم المعرفي والاجتماعي، وإنما يعني اكتمال البُنى الأساسية والهياكل الرئيسة: العقدية والتعبدية والتشريعية، ويظل العقل يعمل على تفعيل أداء تلك البُنى والهياكل من خلال توظيفها في صيغ وأساليب جديدة، وفق توصيف الدكتور (عبد الكريم بكار).

والتغيير المستمر المطلق كبير التكلفة، وعظيم المؤنة، ومفتاح معايشته وتحمل تبعاته هو أن يكون في داخل المرء جوهر يستعصي على التغيير، حيث إن الجوهر الثابت لا يؤدي وظائفه من خلال تطوره وإنما من خلال جموده، وآنذاك فإن كل المتغيرات تسخّر في خدمته وتدعيمه، وحين يسود الجهل ويخيم الجمود العقلي، يسارع الناس إلى تصديق كل ما يسمعونه ويتلقونه على أنه من الثوابت، مع أنه في الواقع لا يعدو أن يكون رأيا من الآراء، والفكر المأزوم مشوش بفعل التعصب، فهو يترس

بالمتغيرات باعتبارها ثوابت، لأنها وافقت هوى الإنسان أو لكونها تخدم تعصبه، وفي المقابل لا يبالي بالثوابت، لأنها لا تتوافق مع هواه، أو لا تخدم مشاريعه التعصبية.

وقد استطاعت الشريعة الإسلامية أن تبلغ كمالا مزدوجا، لا يمكن لغيرها أن يحقق التوافق بين شقيه: لطف في حزم، وتقدم في ثبات، وتنوع في وحدة، وبهذه الطريقة أيضا، أتاحت الشريعة الإسلامية للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة، تجمع أيضا بين النقيضين: خضوع في الحرية، ويسر في المجاهدة، ومُبادأة في الاستمرار، وقليل من فهم تلك الحكمة الرفيعة، هي هبة يمنحها الله للأنقياء الأصفياء من عباده، وفق تعبير الدكتور (محمد دراز)، وهذه خاصية يتميز بها الإسلام عن غيره من الأديان والقوانين الوضعية، فهو قادر على القيام بعملين متساوقين، هما: التفاعل مع الواقع، والنهوض به، وهاتان العمليتان يتم إنجازهما من خلال امتلاك عناصر الثبات في كل ما لا يخضع لاختلاف الزمان والمكان، وعناصر الحركة لكل ما يختلف باختلافهما.

والمرونة في الشريعة الإسلامية، تظهر في القدرة على وضع الحلول التي تطرأ على حياة الناس، والسر في مرونة الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان، أن الإسلام جاء بقواعد كلية وقيم ومبادئ ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ثم وجه العلماء للنظر والاجتهاد في المسائل والحوادث الجزئية التي تستجد في إطار هذه القواعد والمبادئ.

وحديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي أخرجه الإمام مسلم، يؤكد على ذلك بأوضح عبارة عندما قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم). إنه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب، الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات، الثبات على القيم الدينية، والمرونة في الشؤون الدنيوية العملية، والقيم الإسلامية العليا ثابتة، أو هي في حركة حول نفسها، لتحتفظ عن طريق هذه الحركة بثباتها، والفضائل متحركة متغيرة متطورة، كما شبهها الأستاذ (خالد محمد خالد)، وفي هذه الحالة، يمكن القول، إن التربية كعملية هي (منتج) متغير، يحاول أن يُكسب الثبات لمجتمع متغير، عن طريق أصول ما، ينبغي بقدر الإمكان أن تكتسب صفة الثبات، لتصبغ به المجتمع المتغير.

والثبات لا يكون بكثرة الاستماع إلى المواعظ، وإنما يكون بفعل هذه المواعظ والشروع في تنفيذها، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} (النساء: 66)، والأحلى من الثبات على الرأي الخطأ الرجوع إلى الحق إذا سطع.

إن جوهر التطور الجيد في حياة المسلم التقي لا يقوم على التخلي عن الثابت، وإنما على توفير العلاقة الحيّة والخصبة التي تربط بينه وبين المتغير، والعقل الجيد ليس ثابتا مكتملا، إما أن نملكه أو لا نملكه، وإنما هو شيء قابل للتنمية والنضج التدريجي والتراكمي، وذلك من خلال التأمل والنظر والحوار وتغذيته بالمعارف المختلفة.

وقد تم اكتشاف أمر مهم، هو أن عدد خلايا المخ أقرب إلى أن يكون ثابتا، ولكن الذي يتغير هو كيفية تواصل وتلاحم هذه الخلايا، فكلما درّب الإنسان نفسه، وأجهد دماغه بالتفكير زاد عدد الوصلات وتحسن التحامها، وهو ما يؤدي إلى مقدرة أكبر على الاستيعاب، ويرفع من درجة الذكاء، والعكس صحيح. د. (عبد الكريم بكار).

والمزايا والعيوب في الإنسان ليست بالشيء الثابت المطلق، ولكنها تعتمد على الإطار وأسلوب التعامل مع التحديات التي تواجهنا في الحياة، فنتقدم نحو المزايا أحيانًا ونتأخر باتجاه العيوب أحيانًا أخرى. ولهذا تعدّ(الجهالة) إحدى العيوب التي يتصف بها الإنسان، وهي أحب إلى العدو من (العمالة)؛ لأن الجاهل يستخدمه العدو وهو لا يعلم، وهو أكثر ثباتا على باطله، ولا يأخذ أجرا على عمالته، ويكون أكثر تأثيرا في الناس لصدقه وجلده في باطله، وهؤلاء الجُهّال هم داء كل أمة، وهم العقبة الكؤود التي تقف أمام كل نهوض، وهم في المقابل جسر العبور لكل غازٍ ومستعمر.

والمتأمل في قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} (البقرة: 124) يجد في الآية دليلا على أن الثبات على الابتلاء من الله بنوعيه الشرعي والكوني: من أعظم مناقب الأنبياء وخصالهم، وأن الرأس في الحق لا بد أن يبتلى أكثر من غيره، كالرأس من الجسد، فهو أكثر

الجسد بلاء وفتنة وإصابة، وإذا ثبت الرأس، ثبت الجسد، وإذا تهاوى وانتكس، انتكس معه الجسد، فلا ينتكس جسد إلا والرأس يسبقه، وفق تعبير الشيخ (عبد العزيز الطريفي).

والإيمان الصحيح أساس متين لتربية ثابتة، مضمونة النتائج، بعكس التربية التي لا تقوم على ترسيخ الإيمان، فإنها تربية عشوائية غير صحيحة، والثبات في معركة البلاغ المبين لا يسبب خسائر، وحتى خسائره أرباح، والطريق التي يظنها الإنسان سهلة قريبة تؤدي إلى البعد والتيه، وكم من منبر ضاق عندما أتى المفكر المسؤول، واتسع عندما أتى المهرج المفتون، لكن على المفكر أن يواصل طرح فكرته كلما وجد منبرا يفسح له المجال، ولن يعدم ذلك، والثبات والاستمرار والإصرار هي ثلاثية النجاح بامتياز.

ولخطورة أمر الثبات وأهميته كان المعصوم ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يكثر من الدعاء بالثبات على الدين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ـ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ يُكثرُ أن يقولَ: «يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك». فقلت: يا نبيَّ اللهِ، آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: نعم، «إن القلوبَ بينَ إصبعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ». رواه الترمذي وأحمد.

وهذا الدعاء النبوي يحتاج إليه كل مسلم، في كل لحظة، حتى يلقى ربه، مهما كان هذا المسلم صالحًا نقيًّا، ومهما كان برًّا تقيًّا؛ لأن القلوب

تتقلب؛ كما قَالَ الشَّاعِرُ:

قد سُمِّيَ القلب قلبا من تقلبه

فاحذر على القلب من قَلْبٍ وتحويل

ولأن الأعمال بالخواتيم، ولا يدري العبد بماذا يُخْتَمُ له؟ فقد جاء القرآن الكريم بالأدعية الجامعة التي يسأل المؤمن فيها ربه الثبات والهداية وعدم الزيغ، قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (آل عمران: 8).

وقد ركّز القرآن الكريم على موضوع الثبات، من خلال تركيزه على ثبات ثلاثة أعضاء في الإنسان، أولها ثبات القلب، وثانيها ثبات اللسان بالقول الصائب، وثالثها ثبات الأقدام على طريق الحق، وأخبرنا عن عدة نماذج ثبتت قلوبهم وربط الله عليها، وقد كانوا في لحظات شدة وكرب، فتحدث القرآن الكريم عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته رضوان الله عليهم في غزوة بدر فقال: {وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} (الأنفال: 11)، وتحدث عن فتية أهل الكهف فقال: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} (الكهف: 14)، وتحدث عن أم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام فقال: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (القصص: 10).

بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل من أسباب نصره للمؤمنين عند نصرهم له، تثبيت أقدامهم في ساحة المعركة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد: 7). وجعل الله القرآن الكريم أحد المثبتات للمؤمنين الصادقين، فقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (النحل: 102). كما جعل الله القرآن الكريم سببا في ثبات قلب المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وثبات من بعده من المؤمنين إلى يوم القيامة، فقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} (الفرقان: 32)، وجعل الله قصص التاريخ وعبره سببا للثبات، فقال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (هود: 120).

والثبات في ميادين الحياة لا يُطلبُ إلا من الله، وهذا ما أكد عليه القرآن من خلال دعوات المجاهدين في سبيل الله، قال تعالى: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (آل عمران: 147)، وقال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (البقرة: 250).

ورجاء الثبات في القول في الدنيا والآخرة هو أمنية كل مؤمن

موحِد، قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} (إبراهيم: 27). ومن علامات اليقين الثبات، ومن علامات الثبات الأمن عند الروع، كما يقول ابن عطاء الله السكندري.

التعريف بالمؤلف

■ البيانات الشخصية:

الدكتور: يحيى أحمد حسين المرهبي. أستاذ أصول التربية المساعد، كلية التربية والعلوم التطبيقية - جامعة عمران. محل وتاريخ الميلاد: حجة 5/2 /1973م. محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران - مدينة عمران - حارة النهضة السكنية – شارع 22مايو. رقم الموبايل: 00967774155602 بريد إلكتروني almerhbi2010@gmail.com

■ المؤهلات العلمية:

- (2016) دكتوراة - فلسفة التربية- قسم أصول التربية - سياسات تربوية / جامعة الدكتور بابا صاحب امبيدكار/ مهاراشترا / اورنق أباد / جمهورية الهند.
- (2008) ماجستير أصول تربية - جامعة صنعاء - كلية التربية. بتقدير عام: جيد جداً - 82,5 %
- (2004) تمهيدي ماجستير أصول تربية - جامعة صنعاء - كلية التربية بتقدير عام جيد جدا 82,66%.
- (98/99) بكالوريوس تربية - كلية التربية عمران - جامعة صنعاء بتقدير عام جيد .

■ الإنتاج العلمي:

- رسالة الدكتوراه بعنوان : (دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء).
- رسالة الماجستير بعنوان : (العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران).
- لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند.

o عنوان البحث الأول: (مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طالبها(2013)م.

o عنوان البحث الثاني: دور الأسرة والمدرسة في تطوير قيم المواطنة لدى أبنائها التلاميذ(2016)م.

o عنوان البحث الثالث: آليات تفعيل قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية (2016)م.

- لديه بحثان منشوران في مؤتمرين علميين في اليمن ، هما:

o دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة، المؤتمر العلمي الثاني لجامعة الأندلس تحت عنوان (التنمية المستدامة ركيزة للأمن والاستقرار والسلام)، صنعاء، أكتوبر 2020م.

o الدور المأمول من الجامعات اليمنية في خدمة المجتمع المحلي في ضوء الوظيفة الثالثة للجامعات، المؤتمر الثاني لجامعة البيضاء، الجمهورية اليمنية، أغسطس 2021م.

- لديه أبحاث وكتب لم تنشر ورقيا ونشرت إلكترونيا هي:

1. كتاب بعنوان: (اطمئنان قلب) منشور 2020م
1. بحث بعنوان: (دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة) منشور 2020م.
3. كتاب بعنوان: (ثقافة البناء ـ أفكار ورؤى مؤسسة ودافعة للبناء) منشور 2020م.
4. كتاب بعنوان: (على بصيرة ـ تأملات في الدين والحياة). منشور 2019م.
5. كتاب بعنوان: (قد أفلح من زكاها). منشور 2019م. ونشر ورقيا عن طريق دار المشرق الدولية للكتاب ـ ماليزيا.
6. كتاب بعنوان : (مرايا الذات ـ بحث عن الحقيقة) ، منشور .2021 م.
7. كتاب بعنوان : (حياة الروح)، منشور 2022م.
8. كتاب بعنوان: (إعمار العقل) 2023م.

ملاحظة:

رسالة الماجستير والدكتوراة، إضافة إلى الكتب السابقة مرفوعة على موقع مكتبة نور وغيرها على شبكة الإنترنت، ومسموح بتنزيلها من هناك . كما أن لديه بعض المشاريع لكتب ودراسات وأبحاث لم يستكمل إنجازها وتحتاج إلى وقت.